أثر السلاطين والأمراء والأعيان

فى

تنشيط الحركة العلمية فى مكة

فى القرنين السابع والثامن الهجريين

اعداد

الدكتور / بندر محمد الهمزانى

كلية الشريعة – جامعة أم القرى

أهمية الموضوع ، وسبب اختياره

وخطة العمل

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين، وإمام المتقين، وعلى آله، وصحبه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

أهمية الموضوع :

أما بعد؛ فإن مكة جعلها الله- تعالى- نقطة التقاء، ومحط أنظار، ومركز تجمع لجميع المسلمين، من مختلف الأقطار وشتى البقاع الإسلاميه؛ لهذا كانت- وما تزال- من أقوى مراكز نشر الثقافة والعلم بين تلك الأقطار.

كانت همزة الوصل بين علماء المسلمين، فى شرق البلاد وغربها، وشمالها وجنوبها فى مختلف العصور .

ومع انتقال الخلافة الإسلامية من الجزيرة العربية[1] انصرفت أنظار العلماء وتوجهت أبصارهم وتركزت آمالهم حيث يوجد الملك والسلطان، اللذان بهما تتيسر سبل الحياة ويحصل الطمأنينة والهدوء .

ولكن مكة المكرمة لها مكانة دينية فى نفس كل مسلم تجعلها دائماً-

---

(١) انتقلت الخلافة من المدينة إلى الكوفة سنة ٣٥هـ على يد الخليفة على بن أبى طالب- رضى الله عنه- ثم إلى الشام على يد معاوية بن أبى سفيان- رضى الله عنه سنة ٤١ هـ انظر : البداية والنهاية لابن كثير (١٩/٨) .

مابقى المسلمون- مطمح انظارهم، فضلاً عن كونها تضم بيت الله المعظم (الكعبة) محط أنظار المسلمين، وهم بحكم الدين لا يمكن أن ينصرفوا عنها؛ ولهذا فقد أصبحت منذ جاء الإسلام مركزاً للثقافة والعلوم الإسلامية والعربية، يجتمع فيها من العلماء فى كل عام ما لا يجتمع فى أية مدينة أخرى فى العالم .

وكان العلماء فى القرون الماضية يقصدونها من مختلف بلدان العالم الإسلامى ليؤدوا ركناً من أركان دينهم، وحيث إن الحج يتم فى زمن معلوم، فضلاً عن مكان مخصوص (مكة) يحدث الالتقاء والتبادل المعرفى بين العلماء، فالعالم يفد إليها من أقصى المشرق أو المغرب، فيلتقى بعالم آخر من بلاد بعيدة عن بلاده، فيحدث من هذا الالتقاء تقارب وتفاهم، واستزادة علم، وامتداد لروافد المعرفة، وانتشار للأفكار بين مختلف البلدان الإسلامية .

فكانت مكة ومسجدها الحرام مركزاً لحركة علمية بدأت منذ ظهور الإسلام، وأخذت أشكالاً مختلفة بين الانتشار والانحسار على مدار القرون الماضية .

وكان للسلاطين والأمراء والأعيان أثر هام فى تنشيط الحركة العلمية فى مكة المكرمة على مدى القرون الماضية .

لذلك أردنا أن ندرس أثرهم وتأثيرهم فى الحركة العلمية فى مكة المكرمة، خاصة وأن الغالبية العظمى منهم يقدرون المكانة الكبيرة للحرم وما يمثله من قيمة كبيرة فى نفوس المسلمين فى أقطار العالم

الإسلامي جميعها لذا حرصوا على أن يكون الحرم الشريف تحت سيطرتهم ونفوذهم فإشرافهم على الحرمين الشريفين يضفى على خلافتهم وزعامتهم الصبغة الشرعية .

ومع أن الحركة العلمية بمكة لها أهمية كبيرة، خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار مكانة مكة ومسجدها الحرام وما لها من التعظيم والتقديس فى قلوب المسلمين إلا أنها لم تلق العناية الكافية من الباحثين لدراستها .

سبب اختيار الموضوع :

لذلك أردنا أن نلقى الضوء على جزئية أسهمت فى نهوض الحركة العلمية، وهى أثر السلاطين والأمراء والأعيان فى تنشيط الحركة العلمية فى مكة المكرمة، فى فترة زمنية معينة (القرنين السابع والثامن الهجريين) وذلك لاعتبارات مختلفة :

- شهدت هذه الفترة تقلبات سياسية كبيرة فى العالم الإسلامى.

غزو التتار، وسقوط بغداد .

أفول نجم بنى أيوب، وصعود نجم المماليك .

الحروب الصليبية، وغزو لويس التاسع ملك فرنسا لمصر .

تحويل إمارة مكة من حكم بنى فليتة، وهم من أبناء وأولاد الحسن بن على ابن أبى طالب- رضى الله عنه- إلى أمير ينبع أبى عزيز قتادة

بن إدريس، وهو أيضاً من أولاد الإمام الحسن- رضى الله عنه- [1] ومن ثم انتقال الحكم إلى أبنائه من بعده والصراعات الدامية فيما بينهم .

صراع المماليك على الحكم والخلافات التى حدثت بينهم وبين بعض أمراء مكة [2].

ففى ظل تلك التغيرات السياسية الجسيمة فى معظم أنحاء العالم الإسلامى أردنا التعرف على أثرها على الحركة العلمية بمكة المكرمة، وهل كان الخلفاء والسلاطين والأمراء فى وقت صراعهم السياسى منشغلين عن واجبهم تجاه الحرمين الشريفين .

خطة البحث :

ولما كان الموضوع يرتبط بالمسجد الحرام ودوره العلمى، رأينا أن نبدأه بمدخل تاريخى مختصر عن المسجد الحرام، نوضح فيه تاريخه ومكانته عند المسلمين، وإسهامات الرسول -صلى الله عليه وسلم- والرعيل الأول من الصحابة والتابعين فى إثراء الحركة العلمية به .

ثم عرضنا لمقومات البيئة العلمية وأسقطناها على المسجد الحرام، وما يتمتع به من عوامل تؤهله لأن يكون بيئة علمية خصبة .

ثم تحدثنا عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية بمكة

---

(١) المقريزى : السلوك (٢٠٦/١)؛ الفاسى : شفاء الغرام (٣١٥/٢)؛ عز الدين بن فهد : غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام (١/ ٥٥٠-٥٥٢) .

(٢) المقريزى : السلوك (٧٢٤/١-٧٢٦)؛ الفاسى : العقد الثمين (٤٦١/١-٤٦٢-٤٦٦) .

المكرمة فى فترة البحث ومدى تأثيرها على النهضة العلمية .

ثم تكلمنا عن إسهامات الخلفاء والسلاطين والأمراء والتجار، والقادة فى هذه النهضة العلمية وأثر هذه الإسهامات فى تطور الحياة العلمية وتدفق العلماء وطلبة العلم إليها من جميع البلدان .

ثم تطرقنا فى حديثنا عن دولة بنى رسول ودور حكامها فى إثراء الحركة العلمية بمكة.

وختمنا بعد ذلك هذا البحث بخاتمة توضح أهم النتائج التى توصلت إليها .

فكان البحث كالآتى :

الفصل الأول: مدخل تاريخى للحياة العلمية بمكة المكرمة والمسجد الحرام ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : نبذة عن الحياة العلمية فى مكة قبل الإسلام .

المبحث الثانى : موجز للحياة العلمية فى الصدر الأول من الإسلام.

المبحث الثالث :الحياة العلمية بمكة قبيل وأثناء فترة البحث .

الفصل الثانى: مقومات البيئة العلمية، وجعلناه فى ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : العوامل المؤثرة فى البيئة العلمية :

(أ) العامل الدينى .

(ب) العامل الجغرافى .

(ج) العامل الاجتماعى .

(د) العامل السياسى .

(هـ) العامل الاقتصادى .

المبحث الثانى : الحج :

المبحث الثالث : الأسواق :

الفصل الثالث : الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية بمكة المكرمة فى القرنين السابع والثامن الهجريين .

الفصل الرابع : إسهامات السلاطين والأمراء والقادة فى تنشيط الحركة العلمية .

الفصل الخامس : إسهامات الأعيان والتجار فى تنشيط الحركة العلمية.

الفصل السادس : دولة بنى رسول ودور حكامها فى الحركة العلمية بمكة المكرمة .

خاتمة : أهم نتائج البحث .

الفصل الأول

المدخل التاريخي للحياة العلمية بمكة المكرمة والمسجد الحرام

ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : نبذة عن الحياة العلمية في مكة قبل الإسلام.

المبحث الثاني: موجز للحياة العلمية بمكة في الصدر الأول من الإسلام .

المبحث الثالث: الحياة العلمية بمكة المكرمة قبيل وأثناء فترة البحث.

المبحث الأول

نبذة عن الحياة العلمية

(فى مكة قبل الإسلام)

يظن كثير من الباحثين أن العرب قبل الإسلام كانوا لا يقرؤون ولا يكتبون، وأن الكتابة كانت قليلة بينهم، وأن البداوة هى الغالبة على طبعهم، وأنهم كانوا قد تخلفوا عمن حولهم من الأمم فى الحضارة، وكان يعتقد أن أكثرهم عاش عيشة القبائل الرحل فى جهل وغفلة، ولم تكن لهم صلات بالعالم الخارجى، ولم يكن للعالم الخارجى اتصال بهم، وأنهم أميون عبدة أصنام، ليس لهم تاريخ حافل بالحضارة، لذلك أطلقوا على الحقبة التى سبقت الإسلام اسم : الجاهلية .

ولكن بعد البحث والدراسة عن كثب، ومعرفة الخواص الطبيعية لجغرافيتها، يتبين لنا أن جزيرة العرب لا تشمل صحراوات فحسب، بل تشمل كذلك بقاعاً شديدة الخصوبة، قامت منذ آلاف السنين، وكثرت فيها المدن والقرى الزاهرة، حيث سكانها أقوام مستقرون، وانتشرت هذه الجهات الخصبة على أطراف شبه الجزيرة بصفة خاصة [1].

فأرض نجد المرتفعة التى تقع وسط بلاد العرب، بجبالها المنعزلة ووديانها ذات الجداول الطويلة وسهولها التى تربى عليها أفضل الخيول

---

(١) لمزيد من المعلومات : د. صلاح الشامى : الوطن العربى دراسة جغرافية؛ محمد ولد داداه : جزيرة العرب قبل الإسلام .

العربية، ومعها اليمامة التى تقع فى الجنوب الشرقى، تعدان مخزن غلال بلاد العرب الوسطى .

فعلى أثر ذلك ازدهرت فى هذه المناطق حضارة راقية من أرقى الحضارات التى عرفها التاريخ، ففى الجنوب الغربى ازدهرت حضارة قامت على أساس الزراعة والتجارة، ولا تزال السدود المنشأة لخزن المياه وتصريفها، والمدن المحصنة، والقصور، والهياكل القائمة فى تلك الأصقاع خير شاهد على ما كان يتمتع به أصحاب هذه الحضارة من الصناعة الزاهرة، وما كانوا يتحلون به من النزعة الاجتماعية .

أما حياتهم الفكرية، فيستدل من النقوش التى وصلت إلينا أنه كانت هناك مجموعة من القوانين قد نظمت شئون الملكية العقارية، والزراعية، والتجارية ومعاملات الناس تنظيماً دقيقاً [1].

ولقد تم اكتشاف ألوف من النقوش المدونة باللغة العربية الجنوبية (المسند).

ولقد أشار القرآن الكريم إلى وصف العرب قبل الإسلام بأنهم أميون، قال تعالى ﴿ قل للذين أوتوا الكتاب والأميين ءأسلمتم ﴾ (آل عمران : ٢٠) وقال تعالى : ﴿ ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ﴾

---

(١) لمزيد من المعلومات انظر جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام؛ جويدى إغناطيوس : المختصر فى علم اللغة العربية الجنوبية القديمة .

(آل عمران : ٧٥) وقوله تعالى : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منه ﴾(الجمعة:٢).

ولقد بين الراغب الأصفهانى[١] مفهوم الأمية بقوله: والأمى هو الذى لايكتب ولا يقرأ من كتاب وعليه حمل قوله- تعالى-: ﴿ هو الذى بعث فى الأمين رسولا ﴾. قال قطرب[٢]: الأمية : الغفلة والجهالة .

يتبين لنا أن هذا الوصف للأمية لا يعنى الأمية الكتابية ولا العلمية[٣] إنما يعنى الأمية الدينية، أى أنهم لم يكن لهم قبل القرآن الكريم كتاب دينى، ومن هنا كانوا أميين دينياً، ولم يكونوا مثل أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين كانت لهم التوراة والإنجيل [٤] غير أن بعضهم كان على ملة إبراهيم عليه السلام، فكلامنا على التغليب وهناك أناس فى الجزيرة على علم بالأديان وعلى دين إبراهيم الخليل مثل قيس بن ساعدة الإيادى وأمية بن أبى الصلت الذى كانت أشعاره تدعو إلى التفكر والتدبر .

---

(١) مفردات القرآن ص (٢٢) .

(٢) قطرب، هو : محمد بن المستنير، مولى سلم بن زياد، م علماء اللغة. الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين ، (٩٩) .

(٣) د . ناصر الدين الاسد : مصادر الشعر الجاهلى ص ٤٥ .

(٤) د . على الجندى : تاريخ الأدب الجاهلى ، ص ٨ .

وقد بين الطبرى فى تفسيره[1] : أن الأميين من لا كتاب لهم من الناس، مثل الوثنيين والمجوس، ففى قوله تعالى : ﴿ قل للذين أوتوا الكتاب والأميين ءأسلمتم ﴾ (آل عمران: ٢٠) يعنى بذلك- جل ثناؤه-: وقل يا محمد للذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى، والأميين الذين لا كتاب لهم من مشركى العرب : أأسلمتم ؟.

فأمية العرب ليست أمية كتابية، وإنما هى أمية دينية، أى جهل بالدين وإنكار له وعدم تصديق، وقد ذهب ابن عباس إلى هذا القول، فقال : ﴿ ومنهم أميون ﴾(البقرة:٧٨)، قال : قوم لم يصدقوا رسولاً أرسله الله، ولا كتاباً أنزله الله، فكتبوا كتاباً بأيديهم، ثم قالوا لقوم سفلة جهال : هذا من عند الله. وقال : قد أخبرأنهم يكتبون بأيديهم، ثم سماهم أميين؛ لجحودهم كتاب الله ورسوله [2].

وعلى هذا لا يمكن أن نطلق على عرب ما قبل الإسلام اصطلاح أمى بمعنى الجهل بالكتابة، وفى نفس الوقت لا ندعى أن العرب قبل الإسلام قاطبة كانوا قادرين على القراءة والكتابة، وكان لديهم مدارس منتشرة فى كل مكان من جزيرتهم، تعلم الناس القراءة والكتابة والعلوم المعروفة فى ذلك الزمن؛ لأن ذلك لم يكن حتى عند الشعوب المعروفة آنذاك من اليونان والرومان والساسانيين، فالسواد الأعظم من الأمم

---

(١) محمد بن جرير : تفسير الطبرى (١٤٣/٣) .

(٢) المصدر نفسه (٢٥٨/٢) .

جميعها كان جاهلاً، لا يحسن القراءة ولا الكتابة، وإنما عرفت القراءة والكتابة في الخاصة وفي أصحاب المواهب .

وفي مكة : وجد عدد كبير ممن كان يقرأ ويكتب قبل الإسلام، منهم حرب ابن أمية، وأبو سفيان بن حرب، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة، وعمر بن عدس، وحنظلة بن أبي سفيان، وغيرهم[1].

وكان نافع بن نوفل بن عبد مناف بن قصي القرشي ممن يكتب، وهو الذي كتب لعمر بن الخطاب- رضي الله عنه-، وكذلك حاطب بن أبي بلتعة، الذي كان من الكتاب[2].

وذكر البلاذري في فتوحه[3].

-(دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب : عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة بن الجراح، وطلحة، ويزيد بن أبي سفيان، وأبو حذيفة، وعتبة بن ربيعة، وحاطب بن عمرو أخو سهل بن عمرو العامري من قريش، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وأبان بن سعيد بن العاص بن أمية، وخالد بن سعيد، وعبد الله بن سعيد بن أبي السرح العامري، وأبو سفيان بن حرب

---

(١) ابن قتيبة : المعارف، ص٥٥٣ ؛ ابن النديم : الفهرست ص١٣ .

(٢) ابن حجر : الإصابة، (٥١٥/٣)؛ ابن سعد الطبقات (٢٩٩/١).

(٣) البلاذري : فتوح البلدان (٥٨١/١)؛ د. محمد الوكيل : الحركة العلمية في عهد الرسول وخلفائه (١٤).

بن أمية، ومعاوية ابن أبى سفيان، وجهيم بن الصلت بن مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف، ومن حلفاء قريش العلاء الحضرمى) .

ويتبين لنا من هذا العدد الذى ذكره البلاذرى أنهم قليلون جداً، إذ من المحتمل أن يكون البلاذرى قد اقتصر على ذكر أسماء الشخصيات المهمة التى عاصرت الرسول ﷺ ، وأغفل كثيراً من الشخصيات الأخرى. فالمجتمع المكى كان قائماً على التجارة، التى تقتضى معرفة الكتابة والحساب، وقد ذكر القرآن الكريم تعابير كلفظة (كتب، واكتب، ويكتب) وغيرها، وذكر (الكتاب العدول) وهى ألفاظ تدل على معرفة بالكتابة. وإن كانت غير معروفة على نطاق واسع فى مكة المكرمة .

وقد استعان الرسول ﷺ برجال كتبوا له، وكان عددهم اثنين وأربعين كاتباً ومعظمهم من أهل مكة[1].

وكان كتاب -الرسول ﷺ قد وزعوا الأعمال الكتابية فيما بينهم، وربما كان الرسول ﷺ هو الذى وزع تلك الأعمال عليهم، بحيث خص كل واحد منهم بعمل من الأعمال الكتابية، وهذا يدل على معرفة واسعة بالكتابة، وأن هناك اختصاصات حيث يمكن للمرء أن يختص بمعرفة شىء من فنون الكتابة.

والمعروف أن الرسول ﷺ طلب من أسرى بدر من قريش- ممن يعرف القراءة والكتابة- أن يكون فداؤهم تعليم كل واحد منهم عشرة

---

(١) ابن سعد : الطبقات (٢٦٥/١) .

من صبيان المدينة الكتابة والقراءة، وقد علم كل واحد منهم عددا من صبيان المدينة الكتابة بينه[١].

وهكذا نجد أن الكتابة والقراءة كانتا منتشرتين فى مكة، وأن عدد من يعرف القراءة عند ظهور الإسلام كان كبيراً[٢].

ولم تقتصر معرفة العرب قبل الاسلام على القراءة والكتابة باللغة العربية، إذ كان للعربى معرفة ببعض اللغات المهمة الحية آنذاك، وقد أتقنها بعضهم ونقلوا عنها إلى اللغة العربية، فقد ذكر بعض المصنفات معرفتهم بكتب أهل الكتاب ومعرفتهم بالعبرانية والسريانية. فكان ورقة بن نوفل(يكتب العبرانى فيكتب بالعبرانية فى الإنجيل ما شاء أن يكتب)[٣].

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص كثير العناية بكتب أهل الكتاب[٤]، وكان يقرأ بالسريانية[٥]، كما أن رجلاً من بنى عبد القيس كان يسكن

---

(١) السهيلى : الروض الأنف(٥/٢٤٥).

(٢) ابن قتيبة : المعارق(١٣٠)؛ ابن سعد : الطبقات (٢/١٤)؛ المقريزى : امتاع الأسماع(١/١٠١).

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب بدء الوحى رقم حديث(٤)، ومسلم فى كتاب الإيمانرقم حديث(١٦٠).

(٤) أبو نعيم : حلية الأولياء (١/٢٨٥).

(٥) ابن قتيبة المعارف ص (١٢٥).

بالسوس[١] نسخ كتاب دانيال، وكان يقرأه ويفسره للناس، فأمره عمر بن الخطاب- رضى الله عنه- بترك ذلك[٢].

كما أن عدى بن زيد العبادى تعلم الكتابة بالخط العربى، ثم الخط الفارسى، فصار أفصح الناس بالعربية والفارسية، ثم انتقل إلى بلاد فارس فعرف كاتباً بالعربية، وعمل مترجماً فى ديوان كسرى[٣].

وتعلم زيد بن ثابت على عهد الرسول- صلى الله عليه وسلم- الكتابة العبرانية[٤] والسريانية والفارسية والرومية، والقبطية، والحبشية، وتعلم ذلك من أهل هذه الألسن[٥]، وهذا يدل على أن الحياة العلمية لم تقتصر على اللغة العربية، بل تعدى ذلك إلى اللغات المعروفة آنذاك .

إن تطور اللغة العربية والخط العربى وكثرة من يعرف الكتابة والقراءة لابد أن يصاحبه وجود من يقوم بتعليم هذه اللغة؛ لذا فوجود المعلمين عند العرب قبل الإسلام أمر ثابت على الرغم من قلة من ذكر من أسماء المعلمين .

لقد ذكر محمد بن حبيب قائمة بأسماء أشراف المعلمين قبل

---

(١) السوس : بلدة بخورستان، فيها قبر دانيال النبى عليه السلام ياقوت الحموى : معجم البلدان (٣١٩/١).

(٢) الخطيب البغدادى : تقييد العلم ص(٥١).

(٣) الأصبهانى : الأغانى (١٠١/٢).

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان (٥٨٩/١) .

(٥) المسعودى : التنبيه والإشراف (٣٤٦/١).

الإسلام؛ منهم عروة بن زرارة وكان يسمى كذلك الكاتب، وغيلان بن سلمة بن معتب الذى أسلم يوم الطائف، وبشر بن عبد الملك السكونى أخو أكيدر صاحب دومة الجندل، وسفيان بن أمية بن عبد شمس، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة [1]، وعبد الله بن سعيد بن العاص بن أمية الذى كان يعلم الصبيان فى مكة، فأمره الرسول -صلى الله عليه وسلم- أن يعلم صبيان المدينة[2].

وعلى الرغم من أن مصادرنا تذكر أسماء عدد من المعلمين، إلا أننا لا نعرف هل كان المعلم متفرغاً للتعليم، أو أنه كان يجمع بين مهنته الأصلية ومهنة التعليم؟ كما لا نعرف كم كان يتقاضى المعلم من أجور؟ ويظهر أن بعض المعلمين اتخذوا من حرفة التعليم مهنة ثانوية لهم، بينما كانوا يمارسون حرفاً أخرى ليتمكنوا من إعاشة أنفسهم، كما أن هناك من اتخذ التعليم مهنة رئيسية له .

ويظهر أن واجبات المعلم الأساسية هى تعليم الخط والقراءة والكتابة وبعض المبادئ الأخرى مثل علم الحساب وذلك للحاجة اليومية إلى ذلك، ولا سيما فى مكة، حيث المجتمع التجارى .

هذا ولا نعرف شيئاً عن المدة التى كان يمكثها المتعلم لكى يتقن

---

(١) ابن حبيب : المحبر (٤٧٥/١).

(٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب (٧٣/١).

الكتابة، لأن ذلك يختلف باختلاف القدرات والملكات، والمتعلمون متفاوتون فى ذلك .

وهناك إلى جانب وظيفة المعلم، وظيفة الكاتب وهو الذى يختص بكتابة الرسائل والأمور التجارية والمعاملات بين الناس .

فكان لقيط بن يعمر الإيادى كاتباً، وكذلك زيد بن عدى بن زيد العبادى .

كما سمى حنظلة بن الربيع كاتب الرسول -صلى الله عليه وسلم- (الكاتب) حتى عرف بـ (حنظلة الكاتب) .

أما المواد التى كان يكتب عليها فعديدة أيضاً، تتوقف على ظروف المكان، ومقدرة أهله المالية .

فيذكر منها مثلاً: الحجر، والخشب، ومختلف المعادن، والطين، وورق الشجر، والجلود، والقراطيس، وأكتاف الإبل، واللخاف، والعسب، والأديم، والقماش، والأكتاف، والرق[1].

---

(١) د . ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلى، ص (٧٧ وما بعدها) .

المبحث الثانى

موجز للحياة العلمية بمكة فى الصدر الأول من الإسلام

إن المعلومات التى جاءت عن الحياة العلمية فى مكة فى عصر النبوة والراشدين، وإن كانت مشتتة إلا أنها واضحة، بسبب عناية المؤرخين المسلمين بهذه الفترة وتقييدهم لأخبار السيرة النبوية، وأخبار الخلفاء الراشدين بالتفصيل، لما تمثله من أهمية دينية وتشريعية.

ولقد جاءت معلومات متناثرة تفيد معرفة أفراد العرب فى مكة والحجاز بالكتابة والقراءة والحساب، كما ذكرنا فى المبحث السابق، حيث استدعت ذلك ضرورات الحياة، وخاصة فى المجتمع المكى التجارى.

ولا ريب أن أسماء المتعلمين التى أوردتها المصادر لا تمثل إحصاء دقيقاً، ولكن ينبغى ألا يبالغ فى تصور انتشار التعليم على نطاق أوسع مما أوردت؛ لأن قلة عدد المتعلمين هى التى استرعت انتباه الإخباريين لذكر أسمائهم[1].

لقد قامت الحركة العلمية فى عصر النبوة والراشدين على أكتاف رجال يعدون على أصابع اليد، ولكن الحافز الدينى القوى- الذى جعل

---

(١) د. أكرم ضياء العمرى: التعليم فى عصر السيرة والراشيدين، ص ٦١.

الأمة تحدد أهدافها وتوحد قواها- أوجد وسطا ملائماً لانتشار العلم وبعد زمن يسير ظهرت آثار هذه الحركة فى إبراز الطاقات الكامنة، فإذا بأعداد هائلة تعنى بالفكر والعلم، وتظهرالقدرة والإبداع فى ميادين شتى، فتسهم فى بناء الصرح الثقافى والحضارى الجديد .

ولا شك فى أن الانسجام العقيدى والفكرى والاجتماعى، ووضوح الرؤية بتحديد الأهداف العامة للدولة والمجتمع، كان له أثر كبير فى الحركة الثقافية العامة، لمواكبة التقدم العسكرى والسياسى، وحل المشكلات الجديدة فى الدولة الواسعة .

فتحديد وجهة العلم وأهدافه لأول مرة كان من معطيات عصر النبوة والراشدين، وقد أدت الحوافز القوية والضوابط الجديدة إلى انتشار العلم والتعليم بسرعة خارقة، لا تقل دهشة الإنسان أمامها عن دهشته إزاء سرعة الفتوح العسكرية .

لقد أعاد الإسلام صياغة شخصية الإنسان، ففجر طاقاته الإبداعية الكامنة من أجل العلم والعمل لبناء حضارة إنسانية متوازنة، وكانت نظرية المعرفة الإسلامية بشمولها وتكاملها واتساقها وسيلته لإحداث التغير الجذرى فى كيان الإنسان وبنية المجتمع، تلك النظرية التى غرس القرآن بذرتها وعبرت عنها " السنة " فى فجر تاريخ الإسلام .

وما إن أشعلت الدولة الفتيل حتى انطلقت الحركة العلمية بحيث أصبح لا قبل للدولة باحتواء مؤسساتها أو الإشراف عليها .

وهكذا تحولت الحركة العلمية إلى كتاتيب وحلقات علم، ومجالس في المساجد وفي دور العلماء، وظهرت جذور المدارس الفكرية المتنوعة متمثلة في مدرسة أبي موسى الأشعري في القراءات في البصرة، ومدرسة عبد الله بن مسعود في الفقه في الكوفة، ومدرسة عبد الله بن عباس في التفسير بمكة، والمدرستين البصرية والكوفية في النحو.

الحركة العلمية في مكة قبل الهجرة:

كانت دار الأرقم بن أبي الأرقم مكان اجتماع المسلمين في مكة، يوم أن كانت أعدادهم قليلة، يتسربون إليها خلسة خوفاً من قريش، حيث يلتقون بالرسول ﷺ، ويتعلمون منه أمور دينهم، ويتلقون عنه ما ينزل من القرآن [1].

ومن المعروف أن نفراً منهم كان يعرف الكتابة في هذه المرحلة المبكرة، فدون بعض سور القرآن الكريم، ومما يروى أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- اطلع على صحيفة فيها صدر سورة طه فتأثر عند قراءتها وأسلم.

وهذا الخبر يفيد معرفة عمر- رضي الله عنه- القراءة في المرحلة المكية[2]، ومعرفة خباب- رضي الله عنه- وهو الذي كان يقرأ الصحيفة

---

(١) ابن هشام: السيرة (٢٥٣/١) حاشية(١)، الحاكم: المستدرك (٥٠٢/٣-٥٠٣).

(٢) المصدر نفسه: (٣٦٧/١) ومابعدها.

على فاطمة أخت عمر وزوجها سعيد بن زيد- رضى الله عنهما- القراءة .

وكان عبد الله بن مسعود أول من علم القرآن بمكة[١].

ولا شك أن ظروف المسلمين الصعبة، ومواجهتهم العنيفة مع قريش، كانت تقف حائلاً أمام توجيه معظم اهتمامهم للتعليم، إذ إن الاستقرار وهدوء البال يساعدان على انشاره. كما أن الحاجة العلمية للدعوة الإسلامية- فى بدايتها- كانت محدودة .

وكان فى المسلمين الأوائل عدد من المتعلمين .

المسجد الحرام :

كما ذكرنا كان الرسول ﷺ يعلم أوائل المسلمين تعاليم دينه الحنيف فى دار الأرقم بن أبى الأرقم، وقد كانت تلك الدار أول مدرسة فى تاريخ الإسلام[٢]، كذلك كان الرسول ﷺ يلتقى مع أتباعه فى داره إلى أن نزل قوله تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم والله لا يستحى من الحق ﴾ (الأحزاب:٥٣) .

ومع أن المقصود فى الآية الكريمة بيت رسول الله- صلى الله عليه

---

(١) ابن سعد : الطبقات (١٥١/٣) .

(٢) ابن هشام : السيرة (٢٥٣/١) .

وسلم- إلا أن المسلمين فهموا أنه يستحسن عدم اتخاذ البيوت عامة مقراً للتدريس؛ لذلك أصبح المسجد مقراً للتدريس[١] .

فالمسجد في الإسلام ليس مكاناً للصلاة وحسب، بل هو مدرسة أيضاً، كما أنه مكان للعبادة، ولكن علينا أن نفهم أن العبادة ليست مجرد شعائر، بل إنها إيمان وعمل وعلم وخلق .

فالمسجد مركز للتدريب على الانقياد للمبادئ الإسلامية .

والمسجد هو مدرسة للمسلمين يتعلمون فيها كل ما ينفعهم من أمور دينهم ومصالح دنياهم ويعد المسجد مركزاً للتوجيه الفكرى والأخلاقى والتربوى والاجتماعى[٢] وهو بيت الأتقياء ومكان اجتماع المسلمين يومياً ومركز مؤتمراتهم، ومحل تشاورهم وتناصحهم، والمنتدى الذى فيه يتعارفون ويتآلفون وعلى الخير يتعاونون، فمن المسجد خرجت الجيوش الإسلامية ففتحت مشارق الأرض ومغاربها، ومن المسجد تخرج العلماء والفقهاء والمحدثون والقراء والمفسرون وغيرهم من العلماء، فهو بمثابة الجامعة المفتوحة الأبواب .

ومن مزايا المسجد- كمدرسة- تكافؤ الفرص التعليمية للجميع، فالمسجد مفتوح لجميع المسلمين لا فرق بين غنى أو فقير، صغير أو كبير؛

---

(١) د . أحمد شلبى : تاريخ التربية الإسلامية ص ٥٤ ، ٥٥ .

(٢) محمد حسين الذهبى : رسالة المسجد فى العالم عبر التاريخ (بحوث مؤتمر رسالة المسجد) ص(٤٥٧ - ٤٦٠) .

لذا فإن أى مسلم يمكنه أن ينضم للحلقة التى يريد بدون قيد أو شرط.

كذلك فإن التعليم فى المسجد يقوم فى أساسه على مراعاة الفروق الفردية، إذ لا تفرض على الطالب مادة دون أخرى، ولكن الطالب يختار الشيخ الذى يريد والموضوع الذى يرغب؛ فينتقل الطالب من حلقة لأخرى حسبما تمليه عليه رغبته، حتى يستقر به الأمر فى النهاية مع الاتجاه والموضوع والشيخ الذى يلائم استعداداته وميوله. كل هذه المزايا جعلت المسجد يخرج القادة والعباقرة[١].

وكانت مكة والمدينة مركزين هامين من مراكز العلم فى الدولة الإسلامية.

وبعد فتح مكة عين الرسول ﷺ معاذ بن جبل ليعلم الناس دينهم الجديد ويفقه أهلها ويعلمهم الحلال والحرام ويقرئهم القرآن[٢].

فوضع النبى ﷺ اللبنات الأولى لنهضة علمية قلما تتوفر لشعب من الشعوب وفى عهد من العهود بمثل هذه السرعة الفائقة[٣].

وكان عهد الخلفاء الراشدين امتداداً واضحاً للعصر النبوى فلا غرابة أن يكون مد الحركة العلمية فيه مسايراً لكل ما يجد من فتوح وتطور[٤].

---

(١) محمد المجذوب رسالة المسجد قديماً وحديثاً مؤتمر رسالة المسجد ص٦٩٢.

(٢) أحمد أمين : فجر الإسلام ص(١٧٣).

(٣) د. محمد الوكيل : الحركة العلمية وعصر الرسول وخلفائه ص(٣٨ - ٣٩).

(٤) المرجع نفسه ص(٤٣).

وأصبح المسجد الحرام يزدحم برجال الحديث والقراء، وفى العهد الأموى كثرت رحلة العلماء لمكة المكرمة، ولعل العلماء اتجهوا شطر مكة لبعدها عن الفتن السياسية .

وكان الصحابى عبد الله بن عباس- رضى الله عنهما- حبر هذه الأمة من أبرز من اتخذ مكة مقراً له .

وكان والياً على البصرة فى خلافة على- رضى الله عنه- وبعد أن انتقلت مقاليد الحكم لمعاوية ابن أبى سفيان، ترك العراق ورجع إلى مكة، وأخذ يلقى دروسه فى المسجد الحرام عند قبة زمزم على يسار الداخل إليها [1].

وأخذ يعلم الناس التفسير والحديث والأدب والمغازى والسير وأيام العرب .

ويصف السباعى هذه المدرسة، فيقول : وظلت هذه المدرسة- أى مدرسة ابن عباس- تؤدى وظيفتها بأقوى ما تؤديه المدارس الحية، وتنتقل معارفها من طبقة إلى أخرى، ومن جيل ليسلمه إلى آخر .

ويرى الأستاذ أحمد على[2] : أن ما اتبعه ابن عباس فى توزيعه الدروس على أيام معلومة يعتبر أساساً لجدول الدروس الأسبوعى، فقد كان جدول دروسه كالتالى :

---

(١) الأزرقى : أخبار مكة (٥٩/٢)، احمد السباعى: تاريخ مكة (١-١١٦) .

(٢) مجلة الحج : السنة الخامسة عشرة: الجزء الثانى ١٦ شعبان ١٣٨٠ هـ .

اليوم الأول : فقه .

اليوم الثانى : تفسير .

اليوم الثالث : تاريخ الإسلام .

اليوم الرابع : أدب.

اليوم الخامس : تاريخ ما قبل الإسلام .

ولم يكن العلماء يتقاضون راتباً من الدولة لقاء الدروس التى يقومون بتدريسها فى المسجد الحرام، وكذلك فإنهم كانوا لا يأخذون من الطلبة راتباً أو صدقة أو زكاة؛ لأن تعليمهم كان لله وفى سبيل الله [١] .

وكل عالم يلقى على طلبته العلوم التى تبحر فيها، وعليه فإنه لم يكن لكل منهم منهاج مقرر يسير عليه فى تدريسه .

فالدراسة فى الحرم لم تسر وفق مناهج مقررة ومحددة؛ إذ إن المدرس هو الذى يقرر ما يريد تدريسه، والطالب يختار المدرس الذى يلائمه، وعندما يستوعب دروس أستاذه يحصل منه على إجازة التدريس فى ذلك الموضوع، وغالبا ما يحصل الطالب على إجازات من عدة مدرسين[٢].

---

(١) عبد الرحمن صالح عبد الله: تاريخ التعليم فى مكة المكرمة ص (٣٩) .

(٢) لطيفة محمد البسام : الحركة العلمية فى الحجاز من ظهور الإسلام إلى قيام الدولة العباسية ص (١٥٤)

لم تقتصر فائدة الدروس التى كانت تلقى بالحرم على المكيين أنفسهم، بل نهل من هذه المدرسة علماء من شتى ديار المسلمين، وكانت ترد إلى المشاهير من علماء الحرم أسئلة من المدن والأقطار المجاورة، وكانوا يتولون الرد عليها .

المبحث الثالث

الحياة العلمية بمكة المكرمة والمسجد الحرام قبيل وأثناء فترة البحث

لاشك بأن اللبنات الأولى التى وضع أساسها الرسول ﷺ للنهضة العلمية ومن جاء بعده من الخلفاء كان لها أثر كبير فى النهضة العلمية بمكة المكرمة فيما بعد.وكذلك المكانة الروحية التى تمتعت بها مكة المكرمة جعلت عددا كبيراً من المسلمين يفدون إليها فهى أشبه بالبوتقة التى يجتمع بها العلماء والمفكرون الوافدون إليها من شتى أقطار العالم الإسلامى فيتدارسون فيما بينهم ويعقدون حلقات العلم التى أصبحت تغص بطلاب العلم وكانت اسطوانات وسوارى المسجد الحرام مستنداً لظهور العلماء والفقهاء والأدباء والمحدثين والمفسرين وكان الطلاب يتحلقون حولهم وينهلون من علمهم وفقههم(١).

وقد وصف ابن جبير فى رحلته إلى مكة الحلقات العلمية التى كانت تعقد فى المسجد الحرام حيث قال :" والحرم محدق بحلقات المدرسين وأهل العلم "(٢)وكانت هناك أماكن داخل المسجد الحرام تعقد فيها الدورس العلمية مثل زمزم وقبة الشراب(٣).

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة ص (١٢٧).

(٢) ابن جنيد : الرحلة ص (٦٨) .

(٣) الفاسى: العقد الثمين (١٠٥/٣-١٠٦) .

وكانت هذه الأماكن وغيرها تعج بالكثير من الطلاب والمدرسين والعلماء الذين قدموا إلى مكة للاستفادة والدراسة على أيدى علمائها وفقهائها فكان لكل هؤلاء دور كبير فى النهوض بالحركة العلمية وكانت مكة المكرمة محطة لمرور العلماء القادمين من شتى الأقطار الإسلامية فقلما نجد ترجمة لأى عالم من علماء المسلمين فى تلك الفترة إلا وقد ذكر أنه جاور أو مر بمكة المكرمة ليتلقى العلم بها أو ليحصل على إجازة علمية من أحد علمائها.

وكان المسجد الحرام كذلك مقراً ومكاناً لإلقاء المحاضرات والنشاطات الثقافية التى يشارك بها كبار العلماء الوافدين إلى مكة فكل عالم يلقى محاضرة فى المجال الذى كان متخصصاً فيه، وشهدت ساحات المسجد الحرام كثيراً من هذه المحاضرات والخطب الدينية والثقافية [1].

وهكذا كان للمسجد الحرام فى تلك الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها دور علمى كبير لم تقتصر فائدته على المكيين أنفسهم بل نهل من هذه المدرسة علماء من شتى البلدان الإسلامية .

ولقد انتاب النشاط العلمى بعضاً من الفتور خلال ثلاثة قرون من

---

(١) الفاسى : المصدر نفسه (٥٢/٢)، ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب(١٤٨/٤)، الرشيدى : حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولى إمارة الحاج ص (١١٦) .

القرن الرابع حتى القرن السادس الهجرى[١] ويبدو أن المتحكم فى ذلك الفتور هى الأوضاع السياسية التى تتحكم بدورها بقلة أو كثرة العلماء وطلبة العلم القادمين إلى مكة المكرمة وهجرة وتفرق أعلام مكة فى البلدان الإسلامية، وقد اشتهرت بعض الأسر بمكة بطلب العلم مثل بيت الطبرى وآل ظهيرة وآل النويرى الذين كانوا يتولون التدريس والإمامة والخطابة بالمسجد الحرام وأمور الفتوى، واستمر هذا الوضع فى عهد المماليك حيث استمرت البيوت المشهورة بالعلم تنشر العلم بين طلابه سواء فى الحلقات العامة فى المسجد الحرام أو فى بيوتها الخاصة وتوافد عدد كبير من طلبة العلم ونتج عن ذلك كثرة عدد العلماء ومما زاد فى الحركة العلمية تشجيع بعض أمراء مكة على النهوض بالحركة العلمية من خلال المجالس العلمية التى كانوا يقيمونها للعلماء وطلبة العلم [٢] وقد تمخض عن ذلك بروز شخصيات علمية بمكة المكرمة فى شتى المجالات ومنهم تقى الدين محمد بن أحمد الفاسى(ت٨٣٢هـ) والشيخ نجم الدين ابن فهد (ت٨٨٥هـ) وابنه عبد العزيز(ت٩٢٢هـ) وثلاثتهم من كبار مؤرخى مكة كما اشتهر الشيخ مجد الدين بن يعقوب

---

(١) السباعى : تاريخ مكة (٢١٧/١) .

(٢) العبيكان : الحياة العلمية والاجتماعية فى مكة ص (٥٧) .

الفيروز آبادى صاحب القاموس وقد ألف كتابه القاموس فى منزله بمكة المكرمة بجوار الصفا[١] .

ومنذ الربع الأخير من القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى ظهرت بمكة المكرمة مؤسسة تعليمية أخرى بجانب المسجد الحرام ألا وهى المدرسة وعلى الرغم من أن ظهورها بمكة جاء متأخراً عن كثير من البلدان الإسلامية الأخرى إلا أنها أسهمت بشكل كبير فى النهوض بالحركة الثقافية بمكة المكرمة حيث اهتمت بتدريس العلوم الدينية كالحديث والتفسير والفقه وعلوم التصوف والعلوم العربية وتسابق الحكام والأمراء والسلاطين والأمراء والأعيان إلى بنائها .

وأقدم مدرسة أنشئت بمكة هى مدرسة الأرسوفى وقد أمر بإنشائها أحد تجار المسلمين ويدعى عبد الله بن محمد الأرسوفى[٢]. ولا يعطينا الفاسى تاريخاً محدداً لإنشائها فهو يذكر فى موضع أن ذلك قد تم عام ٥٧١هـ/١١١٥ م[٣] بينما يشير فى مكان آخر إلى أن إنشاء المدرسة تم فى

---

(١) السباعى : تاريخ مكة ص (١/٣٢٧) .

(٢) عبد الله بن محمد بن عبد الله الملقب بلعفيف والمعروف بالأرسوفى نسبة إلى مدينة أرسوف بالشام، توفى سنة ٥٩١هـ ١١٩٤م. انظر الفاسى: العقد الثمين(٥/٢٤٧) .

(٣) الفاسى : شفاء الغرام (١/٣٣٦) .

عام ٥٩١هـ[١] وممن درس بها ناصر بن عبد الله المصرى المتوفى سنة ٦٣٤هـ[٢].

ثم تابع الخلفاء والسلاطين فى القرنين السابع والثامن الهجرى ما بدأه أسلافهم من بناء المدارس، وإلى جانب المدارس كانت هناك مؤسسات تعليمية أخرى مثل الأربطة التى بناها الخلفاء والسلاطين والأعيان وأصبحت أبوابها مشرعة للعلماء وطلبة العلم للسكن بها وإيواء من لا مأوى له وشجع ذلك على توافد عدد غير قليل من طلبة العلم والعلماء إلى مكة المكرمة وأصبح للأربطة دور فى الحركة العلمية والتعليمية بمكة المكرمة فى القرنين السابع والثامن الهجريين[٣].

ولا شك بأن هذه النهضة العلمية الكبرى فى تلك الفترة التى أشرنا إليها لم تأت من فراغ وإنما كانت بجهود بعض الخلفاء والسلاطين والأعيان والتجار الذين كان لهم دور واضح فى هذه النهضة العلمية، وهذا ما سنوضحه فى الفصلين الرابع والخامس من هذا البحث.

---

(١) الفاسى : العقد الثمين (١٢٢/١).

(٢) الفاسى : المصدر نفسه (٣١٧/٧) وهذا ما سنتحدث عنه إن شاء الله فى الفصلين الرابع والخامس فى هذا البحث.

(٣) العبيكان : الحياة العلمية والاجتماعية ص (٦٦).

الفصل الثانى

مقومات البيئة العلمية

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: العوامل المؤثرة فى البيئة العلمية .

(أ) العامل الدينى .

(ب) العامل الجغرافى.

(ج) العامل الاجتماعى .

(د) العامل السياسى .

(هـ) العامل الاقتصادى .

المبحث الثانى: الحج .

المبحث الثالث: الأسواق .

المبحث الأول

العوامل المتحكمة فى البيئة العلمية

أولاً : العامل الدينى (الاعتقادى)

إن المسلم المتدبر لكتاب الله تعالى يجد أن العلم والدين كليهما موجودان فى الفطرة بلا تعارض ولا تضارب .

فالعلم يهدى إلى العقيدة الصحيحة كما أن العقيدة الحقة تحث على طلب العلم، والله سبحانه وتعالى أودع فى النفس البشرية- منذ أن خلقها- الفطرة السليمة، قال تعالى: ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (الروم:٣٠) .

كما أن الله تعالى أمد الإنسان منذ النشأة الأولى بالعلم؛ قال تعالى:﴿وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ (البقرة :٣١) .

وقال تعالى :﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق. إقرأ وربك الأكرم. الذى علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ (العلق:١-٥).

فهذه العقيدة أثرت فى إعلاء مكانة العلم لدى المسلمين .

وكان لمكة الدور القيادى فى نشر العلم، والدور الريادى فى الدعوة الإسلامية، وذلك لمكانتها فى قلوب المسلمين.

فقال الله تعالى فى بيته المعظم: ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين. فيه ءايات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴾ (آل عمران:٩٦-٩٧).

قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره[١] : يخبر الله تعالى أن أول بيت وضع للناس أى لعموم الناس لعبادتهم ونسكهم يطوفون به ويصلون إليه ويعتكفون عنده الذى (ببكة) يعنى الكعبة التى بناها إبراهيم الخليل- عليه السلام- انتهى .

وعند البخارى[٢] عن أبى شريح العدوى أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة : ائذن لى أيها الأمير أن أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح، سمعته أذناى، ووعاه قلبى، وأبصرته عيناى حين تكلم به : أنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال : " إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، ولا يعضد بها شجراً، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فيها، فقولوا له : إن الله أذن لرسوله، ولم يأذن لكم، وإنما أذن له فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتهابالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب".

---

(١) تفسير ابن كثير(١/٣٨٢) .

(٢) أخرجه البخارى : كتاب العلم (١٠٤)، ومسلم (٢/٩٨٧) كتاب الحج: (١٣٥٤) .

والمسجد الحرام هو الذى قال فيه النبى ﷺ "لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، ومسجد الأقصى"[١].

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال :"صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام "[٢].

قال الحافظ فى الفتح[٣] : واستدل بهذا الحديث على تفضيل مكة على المدينة؛ لأن الأمكنة تشرف بفضل العبادة فيها على غيرها مما تكون العبادة فيه مرجوحة، وهو قول الجمهور، ثم نقل عن ابن عبد البر قوله: ورد فى فضل مكة حديث أبى سلمة عن عبد الله بن عدى بن الحمراء قال : رأيت رسول الله ﷺ واقفاً على الحجون، فقال:" والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت ". قال: وهو حديث صحيح أخرجه أصحاب السنن، وصححه الترمذى[٤].

---

(١) أخرجه البخارى : كتاب فضل الصلاة فى مسجد مكة والمدينة (١١٨٩)، ومسلم (١٠١٤/٢) وكتاب الحج (١٣٩٧) من حديث أبى هريرة .

(٢) أخرجه البخارى : كتاب فضل الصلاة فى مسجد مكة والمدينة، (١١٩٠)، ومسلم (١٠١٢/٢) وكتاب الحج (١٣٩٤).

(٣) ابن حجر العسقلانى : فتح البارى (١٩٠/٣) .

(٤) أخرجه أحمد (٣٠٥/٤) وعبد بن حميد (٤١٩) والترمذى (٢٠٧/٦-٢٠٨) أبواب المناقب (٢٣٩٢٥) والنسائى فى السنن الكبرى (٤٧٩/٢): كتاب الحج :(٤٢٥٢)- وابن ماجه (٥٤٢/٤): كتاب المناسك (٣١٠٨)، وابن حبان(٣٧٠٨)والحاكم (٧/٣)، وابن البر فى التمهيد (٢٨٨/٢).

قال ابن عبد البر : هذا نص فى محل الخلاف فلا ينبغى العدول عنه.انتهى.

فكل هذه العناصر قد تجمعت فى تشكيل العامل الدينى المتحكم فى مقومات البيئة العلمية لدى المسلمين، بإضافة البعد العلمى .

ثانياً: العامل الجغرافى :

يتضمن العامل الجغرافى : البيئة الطبيعية بسماتها ومكوناتها التى تؤثر فى الإنسان وتتأثر به، ويضم أيضاً الموقع، والمناخ، وإلى أى مدى يؤثر هذا المناخ والموقع فى الطبيعة البشرية .

فإن الله تعالى قد اختار لمكة المشرفة موقعاً متميزاً، فى وسط المعمورة [١]، فهى مدينة فى واد، والجبال مشرفة عليها من جميع النواحى[٢].

ويقول صاحب الرحلة الحجازية[٣] : يقع على الجانب الشمالى لمدينة مكة (جبل ناقية) على مسافة ستة عشر منزلا(مرحلة)، وعلى البعد منه شمالاً تقع أراضى الشام، وفى الجانب الغربى وعلى مسافة ثمانية عشر منزلا يتم الوصول إلى المويلح، وما بعدها مشاع لأراضى مصر .

---

(١)حسين كمال : الإسقاط المكى للعالم، مجلة الدارة، السنة السابعة، محرم(١٤٠٢هـ) ص١٦.

(٢) ياقوت الحموى : معجم البلدان (٢١٧/٤).

(٣) أوليا جلبى: الرحلة الحجازية ص ١٩٩.

وعلى الجانب الغربى، وعلى بعد مسيرة اثنى عشرة ساعة تقع جدة على شاطئ البحر، وما بين الجنوب والشرق طريق مسيرته أربعة أيام، وهو مشاع لليمن، وفى الموقع الذى يقع عليه والمسمى (يلملم) يحرم حجاج بلاد اليمن، وفى الجانب الشرقى، وعلى بعد عشرة مراحل، وعند الوصول إلى (نهر القاع) أى عند الوصول إلى نهر دجلة تكون حدود كل من لحسا، والبصرة .

وفى الاتجاه نحو الشمال الشرقى تقع بلاد أهل السيدة زبيدة، زوجة الخليفة هارون الرشيد، وهى على بعد مسافة ست أو سبع مراحل، وهى مناطق بساتين بغداد، وعلى الطرف الشمالى لمدينة عباس تمتد أرض الله الواسعة، صحراء بيداء ممتدة، وحتى نهر الفرات، وعند الوصول إلى قلعة (آناخ)، وقلعة (سلمى)، وقلعة (الحلة)، والكوفة تقع فى صحراء (التيه) وهى تيه بلا حدود، انتهى .

فهى (مكة المكرمة) تقع فى منصف طريق القوافل بين اليمن والشام، فى واد من أودية تخوم جبال السراة، تحفه الجبال الجرداء من كل جانب، وقد وصفها الله تعالى بقوله : ﴿ بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ﴾ (إبراهيم:٣٧).

لأن هذه الجبال تحيط بالوادى إحاطة كاملة، ليؤدى المسلمون فيها مناسكهم فى كل فصل من فصول السنة .

أما موقعها من الكرة الأرضية من حيث خطوط الطول والعرض: فهى تقع عند ملتقى دائرة عرض(٢،٢٢) شمالاً مع خط طول (٨،٣٩) شرقاً، وعلى الدرجة (١٨، ٢١) من العرض الشمالى، و(٣٧ ، ٥٤) من الطول الشرقى .

وبما أن جبالها متفاوتة فى الارتفاع، فمن الخطأ إذن أن نعطى رقماً واحداً ليدل على ارتفاعها عن سطح البحر .

وإليك ارتفاعات بعض الأماكن عن سطح البحر [1] :

ارتفاع المعابدة : (٣١١) متراً.

ارتفاع جرول : (٢٧٨) متراً .

ارتفاع جبل أبى قبيس : (٤٢٠) متراً .

ارتفاع قعيقعات (جبل هندى) : (٤٣٠) متراً .

أما الموقع الفلكى للكعبة المشرفة : فهى تقع على خط عرض (١٩،٢١) وخط طول (٣٩ ، ٣٦) شرقاً، وترتفع عن سطح البحر (٣٠٠) متراً .

أما من ناحية المناخ : فهى ليست من أشد بقاع الأرض حرارة، وليست باردة، وهى شفا، وليست ساحلاً، ولا هى شديدة الجفاف، ولا رطبة، وليست كثيرة الأمطار، ولا قاحلة .

---

(١) محمد طاهر الكردى : كتاب التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم (٢٩/١).

يقول ياقوت[1] : وهي (مكة) حارة في الصيف، إلا أن ليلها طيب، وقد رفع الله عن أهلها مؤونة الاستدفاء، وأزاحهم من كلف الاصطلاء، انتهى.

وهذه العناصر الجغرافية المتمثلة في وسطية الموقع، واعتدال المناخ، والحدود التي رسمتها الجبال قد جعلت لهذه البقعة ميزات تؤهلها لأن تكون عاصمة علمية، وتصلح لأن يجتمع فيها المسلمون في كل فصل من فصول السنة .

ثالثاً : العامل الاجتماعي :

ويشتمل هذا في التركيب الاجتماعي واللغة والكثافة السكانية .

فالتركيب الاجتماعي لأفراد المجتمع يؤثر في الحياة العلمية؛ فالبلاد التي تكون مجتمعاتها من أجناس وأعراق مختلفة غير متجانسة يحدث بها النزاعات العرقية، الى تؤدى إلى الاضطراب وعدم الاستقرار، في الحركة العلمية وتطورها أكثر ما تحتاج إلى الاستقرار.

فالاختلافات العرقية تؤدى إلى اختلاف اللغات وبالتالي تختلف المفاهيم والفلسفات، والعادات والتقاليد والأعراف، وكل هذه من المركبات الأساسية للحياة العلمية .

واللغة هي أهم عامل في شخصية الأمة، وهي دعامة الثقافة بها،

---

(١) الحموى : معجم البلدان (٤/٢١٨) .

ولكل مجتمع لغته القومية التى تتخذ للتعبير والاتصال ويتوارثها الأبناء عن الآباء، ويلعب التكوين اللغوى دوراً هاماً فى الحياة العلمية، فاللغة وعاء الفكر .

وأما الكثافة السكانية، والتى تصل أحياناً إلى ذروتها فيطلق عليها الانفجار السكانى، وهو قد يمثل مشكلة اقتصادية تؤثر على الحياة العلمية.

فسكان مكة الأصليون من قريش، وهناك بعض القبائل التى نزحت إلى مكة، فنالت من قريش حسن الجوار، فاستقر بهم الحال، وامتزجوا بأبناء قريش .

ويقول الطبرى صاحب الأرج[1] : وهناك من القرشيين الأوائل من خرجوا مع الفتح الإسلامى إلى الشام والعراق، واستقروا فى هذه الأمصار، ولم يبق من القرشيين الأصليين فى مكة إلا القليل، أضف إلى ذلك بعض العائلات القرشية التى سكنت بوادى فاطمة، والطائف، وماجاورهما حيث كانوا يشتغلون بالزراعة، انتهى .

وأما الأمراء فمن الأشراف وهم من بنى الحسن بن على بن أبى طالب، وقد اتصفوا بحسن معاملة الوفود والمجاورين المقيمين فى مكة وكانوا متصدرين لفض المنازعات، وكانوا يميلون دائما إلى الصلح

---

(١) نقلا عن فؤاد عبد الحميد : كتاب الحج والطوافة ص ١٦٠ .

ووضعوا قوانين مشددة[١] وكانوا يشاركون أهل مكة أعيادهم وأفراحهم وأحزانهم [٢].

أما المجاورون : فهم الذين يأتون من جميع الأمصار الإسلامية للحج، ويجاورون البيت الحرام، وأيضاً طلبة العلم الذين يلازمون المسجد للدروس[٣] ، والتجار الذي يمارسون التجارة في المواسم التجارية، وكانوا يمثلون جنسيات مختلفة من شتى الأقطار الإسلامية .

وبطول المقام ومجاورة المسجد الحرام، والتزاوج فيما بينهم، انصهر المجاورون الذين يفدون كل عام مع السكان الأصليين، واتصل بقاؤهم بشئون أساسية لهم، أهمها التجارة، وطلب العلم، ومجاورة المسجد الحرام[٤] ، ولا شك بأن ذلك التمازج ترك بصماته على المجتمع المكي وأدى إلى تحسين أحوال مكة الاجتماعية والعلمية والثقافية[٥].

فأدى ذلك إلى الاستقرار في التركيبة السكانية .

أما اللغة : وهي أساس الاستقرار الحضاري في مكة وشعابها ووديانها،

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام، (١٩٠/٢) .

(٢) د . سليمان مالكي : بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف (١٠٩) .

(٣) ابن الجوزي : المنتظم (١٣٣/٩) .

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان (٢١٩/٨) .

(٥) الزيلعي : مكة وعلاقاتها الخارجية ص (١٥٠-١٥١) .

فقد كانت تعمل على تجميع أفراد المجتمع المكى سواء الأصليين أو المجاورين، وتقريبهم وتوطد أواصرهم .

فهذه العناصر التى تمثل العامل الاجتماعى ساعدت على تكوين بيئة علمية، أساسها الاستقرار .

رابعاً : العامل السياسى :

العامل السياسى يؤثر فى الحياة العلمية ومقوماتها من ناحيتين :

إحداهما : الأيديولوجية السياسية، وهى الظروف السياسية الدائمة التى يعيشها المجتمع .

والناحية الثانية : الظروف السياسية المؤقتة التى تفرض نفسها على المجتمع .

والأيديولوجية السياسية : هى مجموعة من الأفكار التى تضع الأساس لنظام سياسى واجتماعى معين ويصعب فصلها عن النظرية الاقتصادية والاجتماعية، التى بالتالى تؤثر على البيئة العلمية .

ففى مكة ومع فجر الإسلام طرأ عليها تطور جذرى، وذلك لأن مكة بعد أن كانت مقصد العرب وحدهم أصبحت مقصد المسلمين من شتى بقاع الأرض، يفد إليها فى موسم الحج الآلاف من سائر أقطار المعمورة.

فبعد فتح الرسول ﷺ لمكة، ولى عليها عتاب بن أسيد الذى امتدت ولايته حتى آخر خلافة أبى بكر الصديق [١].

وبقيت مكة طيلة عهد الراشدين تدار من قبل وال يعينه الخليفة .

ثم تحولت الخلافة من الحجاز إلى الشام فى عصر الدولة الأموية، وقد فعل معاوية- رضى الله عنه- أشياء كثيرة ليعوض مكة والمدينة عما فقدتاه، محاولا إسكات المعارضة فترة حكمه، وقد نجح إلى حد كبير، ولكن بوفاته ظهرت المعارضة، وكانت على أشدها فى مكة بقيادة عبد الله بن الزبير.ولكن هذه المعارضة لم يكتب لها النجاح .

ولعل صدمة الفشل جعلت أهل مكة يقبعون بعيداً عن مجريات السياسة فى الدولة الإسلامية، فأصبحوا يعشيون على هامش السياسة الإسلامية بعد أن كانوا يعشيون فى صميمها[٢].

وفى العصر العباسى قام العلويون بثورات متعددة على العباسيين، وكانت مكة منطلق بعض تلك الثورات، ولكن ذلك لم يكن ليدوم إلا لفترة قصيرة، فجميع الثورات العلوية التى حاولت السيطرة على مكة

---

(١) ابن حجر: الإصابة (٣٥٦/٤) .

(٢) أحمد السباعى : تاريخ مكة ص(١٠٢) .

باءت بالفشل [١] ، وفى نفس الوقت أعطت العلويين الإصرار والعزيمة على مواصلة تحركاتهم وتحقيق أهدافهم .

ثم جاء عصر الدويلات، فتناوب على الحكم تارة الإخشيديون على مكة سنة (٣٣٢هـ/٩٤٣م) [٢] والبويهيون تارة أخرى وأصبحت مكة المكرمة مسرحاً للنزاع القائم بين البويهيين والإخشيديين وذلك مما أدى إلى قيام عدة معارك بينهما حيث كان أمير الحج المصرى يحرص على أن تقام الخطبة للإخشيديين بينما حرص أمير الحج العراقى على ذكر اسم البويهيين بجانب اسم العباسيين وقد انتهى ذلك النزاع بتلك الاتفاقية التى أبرمت بين الطرفين سنة ٣٤٨هـ /٩٥٩م على أن تكون الخطبة بمكة خاصة للخليفة العباسى وحده [٣].

إلا أن السيادة الإخشيدية على مكة قد عادت من جديد وذلك فى عهد كافور الإخشيدى الذى أصبحت الخطبة تقام له على منابر مكة وبلاد الحجاز حتى نهاية النفوذ الإخشيدى على مصر سنة ٣٥٨هـ /٩٦٨م[٤].

ثم جاء بعد ذلك حكم الأشراف وطبقاتهم بداية من الطبقة الأولى

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ (٣/٥،٧٥،٧٦،١٧٥،١٧٦)؛ الفاسى : شفاء الغرام (٢/٢٨٠،٢٨٢،٢٨٣،٢٨٦) .

(٢) الفاسى : المصدر نفسه (٢/٣٠٥) .

(٣) ابن خلدون : العبر (٤/١٠٠) .

(٤) ابن ظهيرى : الجامع اللطيف ص (٣٠٥) .

التى تعرف باسم الجعافرة نسبة إلى أول من تولى إمارة مكة منهم وهو جعفر بن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى أو يطلق عليهم اسم الموسويين نسبة إلى جدهم موسى ابن عبد الله بن موسى الجون [١].

وكان حكمهم على مكة فى بدايته تحت إشراف وسادة الدولة الفاطمية التى كانت تجبرهم أحياناً على إقامة الخطبة والدعاء للخليفة الفاطمى وقطعها عن الخليفة العباسى فحدث منذ تلك الفترة التنافس بين الخلافتين العباسية والفاطمية على إقامة الخطبة والدعاء لأى منهما على منابر الحرمين الشريفين، وقام هذا التنافس على مبدأ أن السيادة الشرعية على العالم الإسلامى تكون لمن يدعى باسمه على منابر الحرمين الشريفين دون الآخر [٢].

وأصبح هناك تذبذب فى العلاقات من قبل الأشراف فتارة يقيمون علاقات مع الجانب الفاطميين وتارة أخرى مع الجانب العباسى حتى سقطت الخلافة الفاطمية، فبسقوط الفاطمين خسر الأشراف حليفاً كانوا يتفقون معه فى أكثر المبادئ واضطروا إلى مهادنة الأيوبيين وإرضائهم بقبول الدعاء للعباسيين وإشراكهم فى ذلك على منبر مكة [٣] وأصدر

---

(١) ابن عتبة : عمدة الطالب فى أنساب آل أبى طالب ص (٢٢٥)؛ دجلان : أمراء البلد الحرام، ص (٢٨).

(٢) ابن خلدون : العبر (١٠٢/٤)، الجزيرى : الدرر الفرائد ص (٢٤٧).

(٣) السباعى : تاريخ مكة (٢٤٢/١).

السلطان صلاح الدين الأيوبى أوامره بمعاقبة المخلين بالأمن بمكة[١]، ولا شك بأن هذا الإجراء يشجع كثيرا من علماء وأدباء الدول الإسلامية على القدوم إلى مكة والمشاركة فى نهضتها العلمية الموجودة بها فى تلك الفترة وكان آخر طبقات الأشراف التى تولت إمارة مكة المكرمة الطبقة الرابعة بقيادة بن إدريس[٢].

واستمر هؤلاء فى الحكم حتى أقصاهم السعوديون عن مكة سنة (١٣٤٣هـ) فمن الواضح أن الحياة السياسية فى مكة كانت تدور فى فلك الخلافة، وسلاطين وأمراء الدول الإسلامية المستقلة القوية، فباستقرار الحكم تستقر الحياة السياسية فى مكة، وباستقرار الحياة السياسية تنمو الحركة العلمية.

خامساً : العامل الاقتصادي :

بين الاقتصاد والعلم علاقة متبادلة، إذ يتأثر كل منهما بالآخر إلى حد كبير، فالتخلف قرين الفقر، والنمو العلمى والفكرى قرين الغنى.

وكان لموقع مكة أثر بالغ الأهمية بالنسبة للنشاط التجارى، فمكة تقع داخل بلاد الحجاز، التى تقع بدورها فى غرب شبه الجزيرة العربية، وهى تمتد مسافة طويلة على ساحل البحر الأحمر، كما أنها تتصل شمالاً ببلاد الشام، وتتصل جنوباً ببلاد اليمن، وكذلك تتصل بمصر براً وبحراً.

---

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان (٣٨٨/٨)، ابن جبير : الرحلة ص (٧٤-١٠٠).

(٢) ابن فهد : إتحاف الورى (٥٥٠/٢).

وهذا الموقع ساعد على ازدهار النشاط التجارى الذى ساهم فى النمو الاقتصادى، فقد أخذت القوافل التجارية القادمة من اليمن تسير عبر أراضى الحجاز فى طريقها شمالاً إلى بلاد الشام، وتمر هذه القوافل فى طريقها بمكة [١].

وتعتبر مكة من أهم المدن التجارية لبلاد الحجاز.

وترجع أهمية مكة المكرمة إلى موقعها المتميز على طريق القوافل ذهاباً وإياباً كما ذكرنا، وقد أشار الرحالة ابن جبير إلى تلك الأهمية بقوله: " والطريق إليها ملتقى الصادر والوارد [٢] لذلك كانت مكة المكرمة محطة تجارية تتزود منها القوافل التجارية بالماء والمؤن والبضائع ثم تتابع تلك القوافل سيرها شمالا وجنوبا " [٣] أضف إلى ذلك وجود الكعبة المشرفة فيها حيث يقصدها ألوف عديدة من المسلمين على مدار العام، ويشتد تدفقهم فى موسم الحج مما يؤدى بدوره إلى تنشيط حركة البيع والشراء فى أسواقها[٤].

ومما زاد فى أهميتها الاقتصادية أيضاً موقعها القريب من ميناء جدة الواقع على ساحل البحر الأحمر والذى يستقبل أعداداً كثيرة من

---

(١) ابن جبير: الرحلة (٩٦-٩٧).

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣) فريال عبد المجيد: مكة كما جاءت فى كتب الرحالة المسلمين ص (٩٥).

(٤) على بن حسين السليمان: العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك ص(١٥٩).

المراكب التجارية القادمة من موانى مصر والحبشة والهند والصين واليمن [١] وتعد جدة بوابة الحجاز للقادمين إليها من مصر وأفريقيا والمغرب وبلاد السودان [٢] وهكذا كان للتجارة الدولية المارة بميناء جدة أهمية كبيرة فى حياة مكة الاقتصادية .

ونظراً لما تتميز به مكة من موقع دينى يضفى كثيراً من التأثيرات والمؤشرات على حياتها الاقتصادية، وذلك نتيجة حتمية لدعوة أبى الأنبياء إبراهيم-عليه السلام-: ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً ءامنا وارزق أهله من الثمرات من ءامن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ (البقرة:١٢٦).

الخلاصة : فهذه العوامل الخمسة (الدينى ، والاجتماعى ، والجغرافى ، والسياسى ، والاقتصادى) التى مرت بنا هى الأساس فى تواجد بيئة علمية مناسبة تجذب إليها طلاب العلم والعلماء .

---

(١) السبتى : مستفاد الرحلة والاغتراب ص (٢١٨) .

(٢) ريتشارد مورتيل : الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة ص (١٧٥) .

المبحث الثانى

الحـــــج

كان للحج آثاره البعيدة المدى على الناحية العلمية .

فالمسلمون يأتون من كل جهة وصوب؛ قال تعالى : ﴿ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات ﴾ (الحج:٢٧-٢).

وكان لأهل مكة خاصة ميزة ومركز يشعرانها بما عليهم من واجبات نحو الكعبة والحجاج، فقد كانوا يرون لأنفسهم حق الحرمة والميزة على العرب بسبب اختصاصهم بكرامة البيت الحرام، ويعتبرون أنفسهم أهله وأولياءه، كما كانوا يدركون مركز بلدهم وكرامتها وقدسيتها، وقد جعلها الله مثابة للناس وأمنا، لا يسفك فيها دم ولا يثار فيها نزاع ولا قتال .

لذلك كانوا يتعاونون فى القيام بواجبهم نحو وفود الحجاج من ترحيب وإكرام، باعتبارهم ضيوف بيت الله فى بلدتهم ، وهم سدنته الأقربون .

وكان عليهم أن يضعوا للضيوف القوانين والأنظمة لتنظيم الحياة وتوفير الأمن وحفظ الحقوق، وحماية من يفد إليها من الأذى، فمكة وبها بيت الله الحرام لا يجوز العبث والبغى فيها ولا ارتكاب المعاصى واقتراف الذنوب، وسكان البلد الحرام هم فى حمى البيت وفى جواره، فلابد من إنصافهم وإحقاق حقوقهم .

وهذا الاستقرار الحضارى فى مكة إنما هو ثمرة من ثمار الحج؛ فبالحج عمرت مكة وبه ازدهرت ، ونمت تجارتها القديمة واتصلت بالأمم المجاورة وتوطدت علاقتها بالقبائل العربية فى أنحاء الجزيرة العربية.

فكان الحج يعمل على تجميع العرب من كل مكان، ويقرب مجتمعاتهم، ولهجاتهم وتوطيد أواصرهم [١] .

فأثرى الحج الحياة العلمية وكان بدوره أحد مقومات البيئة العلمية فى مكة، فالعرب يأتون من كل جهة ثم يتفرقون، وقد امتلأت جعباتهم بالأخبار، وذاكرتهم بالأشعار والخطب ودروس العلم، وامتلأت أذهانهم بمختلف الصور والمشاهد .

وكما كانوا يأخذون كانوا يعطون؛ فالعلماء وطلبة العلم يأتون إليها من شتى بقاع الأرض فيلتقون بعضهم ببعض، فيحدث التقارب والتفاهم واستزادة علم وامتداد لروافد المعرفة، وانتشار للأفكار بين مختلف الأقطار الإسلامية .

فنستطيع أن ندرك مدى استفادة أهل مكة من هذا الاحتكاك، والاتصال بالوافدين من مختلف الأقطار الإسلامية [٢].

---

(١) السبكى : طبقات الشافعية الكبرى (٥/١٥٣-١٥٦-١٥٨) .

(٢) ابن بشكوال : كتاب الصلة (٢/٤٢٦)، ابن الأبار : تكملة الصلة (١/٨٢-٨٣) .

فلقد كان علماء الأندلس والعراق، والشام، ومصر يفدون إلى مكة المكرمة لا للحج وحده، ولكن لينشروا علماً، وليستزيدوا منه، وليكونوا صلة بين شرق البلاد وغربها بالعلم والمعرفة [1].

وهذا العامل جعل مكة ومسجدها الحرام من أقوى مراكز نشر الثقافة بين الأقطار الإسلامية وأثرى الحياة العلمية .

---

(١) أوليا جلبى : الرحلة الحجازية ص (٣٧) .

المبحث الثالث

الأســـواق

إن للجزيرة العربية موقعاً متوسطاً متميزاً؛ فهى تقع بين أكبر الدول فى ذلك الوقت وأقدم الحضارات، فإلى شمالها الغربى بلاد الروم ومصر، وإلى شمالها الشرقى بلاد فارس، وإلى غربها الجنوبى وراء البحر بلاد الحبشة، وفى جنوبها البحرالهندى، الذى يفصلها عن بلاد الهند .

فإن معظم تجارات العالم منذ القدم هى بين هذه البلاد التى عددنا، فالدولتان العظيمتان اللتان تنازعتا النفوذ والسياسة فى العالم (فارس والروم) كانتا على علاقات تجارية وسياسية مع بلاد العرب، (وكان للمواصلات التجارية فى جزيرة العرب طريقان : أحدهما : شرقى يصل عمان بالعراق وينقل بضائع اليمن والهند وفارس براً، ثم يجوز غرب العراق إلى البادية حتى ينتهى به المطاف فى أسواق الشام، يمر التجار فيه على أسواق اليمن والعراق وتدمر وسورية، ويبيعون فى كل قطر ما لا يكون فيه ويأخذون منه إلى غيره ما يروج فيه .

والطريق الثانى : وهو الأهم، غربى، يصل بين اليمن بالشام مجتازاً بلاد اليمن والحجاز ناقلاً أيضاً بضائع اليمن والحبشة والهند إلى الشام، وبضائع الشام إلى اليمن حيث تصدر إلى الحبشة وإلى الهند فى البحر[1].

---

(١) سعيد أفندى : أسواق العرب ص (١٦) .

وكان من الطبيعى أن يمارس كثير من العرب التجارة رجالاً ونساءً، وخاصة الذين تقع بلادهم قريبة من الطرق التجارية .

فليس بدعاً أن تكون التجارة وإقامة الأسواق من أول أسباب المعاش للحجازيين، وبخاصة مكة المركز التجارى العظيم فى جزيرة العرب، فعكفوا على التجارة وتمادحوا بكسب المال، وأخذوا يضربون فى الأرض يبتغون الرزق من هذه المهنة .

ويقول الأستاذ أحمد أمين [1] : ووصل المكيون قبيل الإسلام- عندما كان العداء بين الفرس والروم بالغاً منتهاه- إلى درجة عظيمة فى التجارة، وكان على تجار مكة اعتماد الروم فى كثير من شئونهم، حتى فيما يترفهون به كالحرير، وحتى استظهر بعض مؤرخى الافرنج أنه كان فى مكة نفسها بيوت تجارية رومانية يستخدمها الرومانيون للشئون التجارية، والتجسس على أحوال العرب، كذلك كان فيها أحابيش ينظرون فى مصالح قومهم التجارية، انتهى .

والتجارة منذ القدم تنقل معها الثقافية والمعرفة، وتعمل على إثراء الحركة العلمية .

فيقول ابن صاعد[2] : ليس يوصل إلى خبر من أخبار العجم والعرب إلا بالعرب ومنهم، وذلك أن من سكن بمكة من العماليق وجرهم وآل

---

(١) فجر الإسلام ص (١٠) .

(٢) طبقات الأمم ص (٦٩).

السميدع وخزاعة أحاطوا بعلم العرب العاربه، والفراعين العاتية، وأخبار أهل الكتاب، وكانوا يدخلون البلاد للتجارة فيعرفون أخبار الناس، وكذلك من سكن الحيرة وجاوروا الأعاجم من عهد أسعد أبى كرب وبختنصر حووا على الأعاجم وأخبارهم وأيام حمير ومسيرها فى البلاد، وعنهم صار أكثر ما رواه عبيد بن شرية، ومحمد بن السائب الكلبى، والهيثم بن عدى، وكذلك من وقع بالشام من مشايخ غسان خبير بأخبار الروم ، وبنى إسرائيل، واليونانيين، ومن وقع بالبحرين من تنوخ وإياد، فعنه أتت أخبار طسم وجديس، ومن وقع من ولد نصر من الأزد بعمان، فعنه أتى كثير من أخبار السند والهند وشئ من أخبار فارس، ومن وقع بجبلى طىء، فعنه أتت أخبار آل أذينة، والجرامقة، ومن سكن باليمن، فإنه علم أخبار الأمم جميعاً، لأنه كان فى دار مملكة حمير وفى ظل الملوك السيارة إلى الشرق والغرب والجنوب والشمال، ولم يكن ملك منهم يغزو إلا عرف البلاد وأهلها، انتهى .

إذا تجاوزنا عن جانب المبالغة فى الكلام، فالشاهد أن العرب لم تقتصر فائدتهم فى ترحالهم على الاتجار بل كانوا يستفيدون من رقى أهل الحضارات المجاورة ويحملون عنهم آثار من تقدمهم وثقافتهم .

وإقامة الأسواق التجارية ضرورة ملحة لرواج التجارة .

وارتبطت أسواق مكة بأيام الحج، وخاصة أسواق (ذى المجاز، وعكاظ، ومجنة)، فكانت فى أيام معلومات وأماكن مستقرة .

وإذا كانت هذه الأسواق مجالاً لنشاط أهل مكة التجارى، فقد كانت من جهة أخرى تقليداً خطير الشأن جليل النفع بالنسبة للعرب الذين كان لهم فى موسم الحج وأشهره الحرم فرصة الغدو والرواح آمنين مطمئنين، فكانوا يفدون على موسم الحج من كل الجهات من أطراف الشام والعراق ومن اليمن وتهامة، والبحرين على مختلف القبائل والبيئات والجهات والعقائد، فيلتقون فى هذه الأسواق، ويتبادلون السلع ويقيمون أودهم، ويتزودون بما هم فى حاجة إليه من العروض، كما كانوا يجدون فيها فرصةلإقامة مجالس المفاخرة، وإنشاد الأشعار والمفاضلة بين الشعراء، ولعقد حلقات السمر، ومجالس القضاء لحل المشاكل والقضايا المعقدة .

كما كانت فرصة لبث الأفكار وتسيير الأخبار، وتعارف الزعماء والشعراء والخطباء، كما كانت مجالاً لمزاولة أنواع الرياضة من فروسية وسباق ومصارعة ومناضلة .

وقد وجد النبى ﷺ هذه الأسواق فرصة للقاء وفود العرب وزعمائهم ونبهائهم ليعرض عليهم رسالته ويقرأ عليهم القرآن، وقد تقابل مع وفد يثرب وتم بينهم الاتفاق، فكانت الهجرة بعد ذلك وما تلاها من أحداث غيرت مسار التاريخ العربى بل وجه التاريخ العام.

وكانت أهم الأسواق : عكاظ [١]: أهم أسواق العرب أيام الجاهلية، فهى مجمع أدبى لغوى رسمى، له محكمون تضرب عليهم القباب، فيعرض شعراء كل قبيلة عليهم شعرهم وأدبهم، فما استجابوه، فهو الجيد، وما بهرجوه فهو الزائف، وحول هذه القباب الرواة والشعراء. فما ينطلق الحكم بحكمه حتى يتناقل أولئك الرواة القصيدة الفائزة فتسير فى أغوار الجزيرة وأنجادها، وتلهج بها الألسن والبوادى والحواضر .

وهى السوق التجارية الكبرى لعامة أهل الجزيرة، يحمل إليها من كل بلد تجارته، وصناعته كما يحمل إليها أدبه .

وعكاظ تحل (تقع) بين مكة والطائف على مرحلتين من مكة، ومرحلة من الطائف، فهى جنوب مكة من الشرق[٢] .

ذو المجاز[٣] : وهى موضع بمنى، ومنى بين مكة وعرفات فى نصف الطريق تقريباً، قالوا: إنها على فرسخ من عرفة بناحية كبكب .

وسمى ذا المجاز؛ لأن إجازة الحاج كانت منه .

---

(١) سعيد أفندى : أسواق العرب ص (٢٧٧) .

(٢) الحموى : معجم البلدان(١٦٠/٤). وقد كثرت فى الآونة الأخيرة اجتهادات العلماء والكتاب لتحديد موقع عكاظ ويذكر السباعى فى أخبار مكة ص ٤٥ أن هذه السوق يرجح أن تكون شوق الحوية يمين الذاهب إلى الرياض .

(٣) الحموى : معجم البلدان (٦٦/٥) .

وتحفل ذو المجاز- لوقوعها أيام الحج- بجموع العرب وتجارهم وأشرافهم، وهى تلى عكاظ فى الشأن ويجرى فيها ما يجرى فى هذه من تبايع وتناشد، وتفاخر، وفداء أسرى، وطلب ثأر ..إلخ .

أما مجنة [1] : فهى موضع قرب مكة أيضاً تقع بمر الظهران، قرب جبل يقال له : الأسفل وهو بأسفل مكة على قدر بريد منها، ويرجح السباعى أن تكون هى بلدة بحرة حالياً [2].

وهذا السوق لكنانة وأرضها من أرض كنانة، تقوم فى العشر الأخير من ذى القعدة، ويقصدها العرب بعد أن تنفض سوق عكاظ، يتمون فيها ما قصدوا له من تجارة وفداء وتفاخر .

وإذا انقشع الناس من مجنة حين يهل ذو الحجة، ساروا بأجمعهم إلى ذى المجاز وأقاموا بها حتى اليوم الثامن من ذى الحجة، وهو يوم التروية، سمى بذلك؛ لأنهم كانوا يرتوون فيه من الماء ويملؤون أوعيتهم لما بعده إذ لا ماء بعرفة .

وفى داخل مكة المكرمة أسواق تجارية مشهورة مثل سوق المسعى الذى كان يعتبر من أكبر وأهم الأسواق التجارية، بمكة وكان يباع فى هذا السوق جميع أنواع البضائع الواردة من الشرق والغرب كالجواهر، والذخائر والأحجار الكريمة والطيب والمسك والعقاقير الهندية وغيرها

---

(١) المصدر نفسه (٧٠/٥)، سعيد أفندى : أسواق العرب ص (٣٤٤) .

(٢) السباعى : تاريخ مكة ص (٤٥) حاشية (٢) .

من البضائع التى تجلب من الهند والحبشة واليمن والعراق وخراسان والمغرب[١] .

وكذلك الأسواق الموسمية فى منى وعرفة وقد سجلت هذه الأسواق نشاطاً تجارياً ملحوظاً فالتجمع الإسلامى الكبير كان يصاحبه دائماً حركة هامة ونشطة فى البيع والشراء ففى هذه الأسواق الموسمية كان يلتقى عدد من التجار والوكلاء وغيرهم وتعقد فيها الصفقات التجارية الكبرى [٢].

الخلاصة : أن هذه الأسواق التى كانت تقام فى مكة، وفى زمن الحج، والتى شهدت البيع والشراء والمفاخر والإنشاد- قد ساهمت فى تشكيل الحركة العلمية وعملت على إثرائها .

---

(١) ابن جبير ص (٩٦-٩٧)، جميل حرب : الحجاز واليمن فى العصر الأيوبى ص (١٣٧-١٣٨).

(٢) سعاد الحسن : النشاط التجارى فى مكة فى العصر المملوكى ص (٢٧٨-٢٨٠) .

الفصل الثالث

الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية بمكة المكرمة فى القرنيين السابع والثامن الهجريين

أولاً : الأوضاع السياسية :

حاول العلويون منذ وفاة النبى-صلى الله عليه وسلم - الوصول إلى الحكم واعتلاء الخلافة ولكنهم فشلوا فى تحقيق ذلك وكانوا يشعرون أنهم أصحاب حق مهضوم يجب استرداده من أبناء عمومتهم العباسيين الذين سلبوا بلك الخلافة وأصبحت مكة المكرمة والمدينة موطناً لثوراتهم ضد الخلافة العباسية التى أخذت على عاتقها محاربة تلك الثورات العلوية والقضاء عليها وعلى زعمائها ومدبريها [1] ولكن تلك الانتصارات العباسية قد أعطت للعلويين الإصرار والعزيمة على مواصلة تحركاتهم وتحقيق أهدافهم، إذ أخذوا يتحينون الفرص المواتية لهم لتحقيق مآربهم فى الاستيلاء على بلاد الحجاز وإعلان الخلافة لأنفسهم، ولكى يضمن العباسيون بقاء نفوذهم وسيادتهم على مكة المكرمة فقد أسندوا إمارتها إلى الوالى الإخشيدى محمد بن طغيج القائم بولاية مصر والشام فى سنة ٣٣٢هـ /٩٤٣م [2] فعين عليها أمراء من قبله وأصبح اسم الإخشيديين يذكر فى الخطة مع اسم الخليفة العباسى لا ينافسهم على

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ (٥/٢، ٣، ٧٤، ٧٥، ١٧٤، ١٧٥، ٣٢٩، ٣٣٠) .

(٢) الفاسى : شفاء الغرام (٣٠٥/٢) .

ذلك أى منافس حتى ظهور البويهيين على مسرح الأحداث السياسية فبدءوا فى منافسة الإخشيديين على الخطبة بمكة فأبرمت بعد ذلك اتفاقية تقضى بموجبها على أن تكون الخطبة بمكة خاصة للخليفة العباسى وحده ثم عادت السيادة الإخشيدية من جديدوامستمر حتى نهاية النفوذ الإخشيدى على مصر سنة ٣٥٨هـ /٩٦٨ م[١] .

وفى هذا العام استطاع أحد العلويين، وهو جعفر بن محمد بن الحسن من طردهم منها وكون (حكومة الطبقة الأولى من الأشراف)[٢].

وبانتهاء حكم طبقة الأشراف الأولى عام (٤٥٣هـ) انتقل الحكم فى مكة إلى فرع آخر من الأشراف، هم السيمانيون الذين دام حكمهم لها بضع سنين، انتقل بعدها لفرع ثالث من الأشراف هم الهواشم، أو الطبقة الثالثة من الأشراف، وقد استمر حكمهم حتى عام (٥٩٧هـ)، أى : مطلع القرن السابع الهجرى ، وفى ظل هذه الدوله كانت يدعى للفاطميين فى مصر، فى أغلب الأحيان، وللعباسيين فى بعض الأحيان .

ولقد تغير مزان القوى فى العالم الإسلامى بظهور صلاح الدين الأيوبى، الذى قضى على الحكم الفطمى بمصر عام (٥٦٩) [٣] .

---

(١) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف فى فضل مكة ولأهلها وبناء البيت الشريف ص (٣٠٥) .

(٢) جمهرة أنساب العرب ص (٤٧)، العز بن فهد : غاية المرام (١/ ٤٨٠) .

(٣) المقريزى : السلوك (١/ ٤١ : ٦٧) .

وكان صلاح الدين يعترف بسلطة الخلافة العباسية، لذا أصبح الخطباء في مصر وكذلك في مكة يدعون للخلفة العباسي، ولصلاح الدين الأيوبي [١].

ثم انتقل الحكم في مكة إلى فرع آخر من الأشراف وهم الطبقة الرابعة من الأشراف، ويعرفون بأشراف قتادة، نسبة إلى مؤسس حكمهم، وهو قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى [٢]، أبو عزيز، العلوي، وكان شجاعاً عاقلاً، ترأس عشيرته، واستولى على ينبع والصفراء، وكثرت الفتن بمكة بين المتنازعين على إمارتها، فقصدها بجمع قوى، فملكها سنة(٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) واتسع ملكه إلى المدينة والطائف ونواحي اليمن وبلاد نجد[٣]، وكان فاضلاً محسناً في بدء أمره، ثم جدد المظالم والمكوس، وكان يقول : أنا أحق بالخلافة[٤]. وولي من بعده ابنه الحسن، واستمر الحكم في هذه الطبقة من الأشراف حتى أقصاهم السعوديون عن مكة سنة (١٣٤٣هـ /١٩٢٤م) [٥].

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر(١٠٤/٤)؛ أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين (٢١٦/١)؛ الجزيري : الدرر الفرائد (٥٦٩/١).

(٢) ابن عنبة : عمدة الطالب ص (٢٣٩).

(٣) الفاسي : العقد الثمين(١٧٣/١)، والقلقشندي : صبح الأعشى (٢٧٢/٤)، دحلان : أمراء البلد الحرام ص (٣٧).

(٤) المقريزي : السلوك (٢٠٦/١)، ابن الأثير : الكامل في التاريخ (١٥٤/١٢).

(٥) السباعي : تاريخ مكة (٦٤٠/٢)؛ المالكي : بلاد الحجاز ص (٥٠).

وعندما اصبحت مصر نقطة الانطلاق للحكم الإسلامى، ومصدر إصدار القرارات فى العصرين الأيوبى والمملوكى، أصبحت مكة والمسجد الحرام يتأثران بما يحدث فى مصر، وتبعاً لقرارتها .

ولعل الدولة الأيوبية كانت الحياة السياسية بها مليئة بالصراعات مع الصليبيين، والدولة الأيوبية نفسها إحدى النتائج الهامة التى تمخضت عنها الحركة الصليبية فى الجانب السياسى، ودولة بنى أيوب تعتبر بدورها مسئولة إلى حد كبير عن قيام دولة سلاطين المماليك فى نفس المنطقة فى منتصف القرن السابع الهجرى، ففى كثير من جوانب النشاط السياسى والحربى والحضارى تبدو دولة سلاطين المماليك استمرارا لدولة بنى أيوب، وذلك باستثناء بعض أوجه التباين الهامشية نتيجة لنوعية الحكام فى كل من الدولتين من ناحية، ولطبيعة الظروف الخارجية التى أحاطت بكل منهما من ناحية أخرى، مما ترك أثره فى صورة البلاد الداخلية من ناحية ثالثة .

فمنذ أن ملك الأيوبيون بلاد مصر تطلعت أنظارهم إلى بلاد الحرمين الشريفين نظراً لمكانتها الدينية فى نفوس الكثير من المسلمين ورغبة منهم فى أن يكونوا حماة للحرمين الشريفين وأن يسودوا بهذا العالم الإسلامى[1] .

---

(١) المالكى : بلاد الحجاز ص (٣٧).

فدخلت مكة تحت طاعة الأيوبيين سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م فحرص الأيوبيين على توطيد الأمن بمكة وتحقيق العدالة للسكان المحليين والحجاج والتجار القادمين إليها [١]، وأهم ما يميز تاريخ الأيوبيين فى المنطقة وقوفهم بشجاعة ضد توغل الصليبيين فى البحر الأحمر نظراً لأهميته باعتباره الطريق البحرى الموصل بلاد الحجاز حيث الحرمان الشريفان فى مكة المكرمة والمدينة المنورة [٢].

ولما كان المماليك الأوئل قد نشأوا وشبوا فى حجر سادتهم وأساتذتهم ملوك بنى أيوب، فإنهم منذ اللحظة الأولى التى أعلنوا فيها دولتهم، أظهروا تمسكاً شديداً بما كان سائداً فى العصر الأيوبى من نظم ورسوم، كما اعتبروا أنفسهم ورثة أساتذتهم الأيوبيين ليس فى ممتلكاتهم فحسب؛ بل أيضاً فى سياستهم الخارجية تجاه القوى المعاصرة سواء الصديقة أو المعادية .

وبطبيعة الحال كان للمماليك نفس السياسة التى اتبعها بنو أيوب تجاه مكة وحكامها من الأشراف، وأصبح لدولة المماليك نفوذ واسع فى مكة المكرمة منذ القرن السابع الهجرى [٣].

---

(١) الفاسى : العقد الثمين (١/١٧٤)، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف (٣٠٩-٣١١) .

(٢) حسنين ربيع : البحر الأحمر فى العصر الأيوبى ص (١)، نقلا عن المالكى ص (٤٠).

(٣) دخلت إمارة مكة المكرمة تحت نفوذ المماليك، وذلك فى عهد الأمير الشريف ابى نمى بن أبى سعيد الحسنى فى سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م عندما بلغ النزاع بين أبى نمى الشريف إدريس غايته وطلب احد الطرفين المتنازعين من تلقاء نفسه تدخل الظاهر بيبرس الذى وجدها فرصة سانحة للتدخل فى شؤون أمارة مكة المكرمة . انظر الفاسى : العقد الثمين (١/٤٥٩)، المقريزى : السلوك (١/٥٧٩)، ابن رشد: ملء العيبة بما جمع الغيبة (٥/٨٧) .

وسرعان ما ظهر على الساحة دولة بنى رسول، وهى أسرة وفدت إلى اليمن منذ الفتح الأيوبى، واستقل نور الدين عمر بن رسول باليمن عام (٦٢٦هـ /١٢٢٨ م)، ونال اعتراف الخليفة العباسى، وكانت زبيد عاصمة بنى رسول التى استمرت فى الحكم حتى عام (٨٥٨هـ)، وكان معظم حكام هذه الدولة من بناة المساجد والمدارس بل وكان بعضهم من الكتاب[1].

وسوف يأتى الكلام عليهم بالتفصيل فى المبحث الثالث، وقد حدث تنافس بين حكام بنى رسول والمماليك على بسط النفوذ على مكة المكرمة؛ لأن السيطرة على مكة تضفى على صاحبها فخراً ورفعة، وتجعله فى نظر العالم الإسلامى مكتملاً لشرعية الخلافة. ومما زاد فى هذا التنافس صراع الأشراف(حكام مكة) أنفسهم على السلطة، فإذا كان الشريف مدعوماً من قبل المماليك، اتجه خصومه صوب اليمن طالبين المساعدة .

ويمكن القول بوجه عام : إن نفوذ المماليك كان الأقوى، فقد أخذوا يرسلون مراسيم تعيين الأمير الجديد، ويرسلون كذلك مرتبات القائمين على شئون الحرم، فكانوا حريصين على بسط نفوذهم وسيطرتهم على الحجاز؛ لعوامل دينية وسياسية .

---

(١) أحمد جابر عفيف : الموسوعة اليمنية (١/١٧٥).

واستمر هذا الوضع فى عهد المماليك الشراكسة، بل إن تدخلهم فى شئون مكة ازداد عن ذى قبل [١] .

ثانياً : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية :

من المعلوم أن توفير الطعام للحجاج فى مكة، وشعائر الحج مرتبطان بالاستقرار السياسى والإدارى فى كل موسم، ومدى إمكانية السلطان فى توفيرهما للحجاج .

وهذه نظرية تبدو بديهية، ولكن الظروف التى عاشتها الأراضى المقدسة خاصة والحجاز عامة فى نهاية العصر العباسى، أو ما قبل ذلك بقليل، فرضت على مؤرخين مثل الفاسى وابن جبير وغيرهما من المعاصرين أن يشترط الأمن والاستقرار فى كافة أنحاء البلدان المحيطة بالحرمين الشريفين؛ كى يتمكن الحجاج من الوصول إلى بيت الله الحرام وأداء فريضة الحج، دون أن يتعرضوا لنهب أو سلب، أو أن تفرض عليهم ضرائب باهظة يدرؤون بها الخطر المدلهم المحيط بهم[٢].

---

(١) الفاسى : شفاء الغرام (١٩٠/٢). ولمزيد من المعلومات حول الأوضاع السياسية فى تلك الفترة انظر. الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة فى العصر المملوكى، ريتشارد مورتيل .

(٢) الجزيرى : الدرر الفرائد (٥٣٩/١-٥٥٣)، الرشيدى : حسن الصفا والابتهاج ص (١١٣).

فمنذ بداية القرن الرابع الهجرى تعرضت قوافل الحجاج لكثيرمن المضايقات وأنواع الفزع والهلع، ثم أخذت هذه الصورة تتلون بألون شتى، منها ما كان سياسياً، ومنها ما كان تملقاً وتزلفاً للولادة والحكام [١] .

وأصبحت الضغوط على قوافل الحج والحجاج والتجارة تخف وتشتد إذا ما بسط أو قبض الخلفاء أيديهم عن حكام وأشراف مكة، الذين كانت لهم سيطرة على قبائل البدو الذين يشنون غاراتهم على الطرق ويروعو ن المارين عليها، أو كانت لهم ومعهم مهادنات ومصالح[٢].

بيد أنه على الرغم من تلك الظروف، ونظراً لما تتميز به مكة المكرمة من موقع دينى يضفى كثيراً من التأثيرات والمؤشرات على حياتها الاقتصادية، فإن أفئدة قلوب المسلمين تهفو إليها، والراغبون فى حج بيت مالله الحرام يفدون إليها من جميع الأقطار الإسلامية ويتدفق عليها من الخيرات والثمرات ما ينعش اقتصادها، ويعوض عجز مصادر الدخل فيها [٣] .

هذا بالإضافة إلى أن المناطق الزراعية الخصبة المحيطة بمكة والتابعة لإمارتها كوادى فاطمة والطائف، ووادى نخلة ومنطقة عسفان،

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى (٢/٨٠٥ ، ٥٤٩)، ابن جبير الرحلة ص (١٥٠).

(٢) النجم عمر بن فهد : اتحاف الورى(٢/٤٨٦)، العز بن فهد : غاية المرام (١/٥٣٦-٥٣٧).

(٣) ابن الجوزى : المنتظم (١٠/٢٢٢)، ابن جبير : الرحلة ص (٩٧)، على بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية، ص (١٥٩).

ومر الظهران وحداء وما يجاورهما من القرى- كانت تنتج الكثير من المحصيل والمنتجات الزراعية، كما عرفت فى مكة بعض الصناعات مثل دبغ الجلود حيث كان يوجد بها صناع مهرة متخصصون فى هذا المجال وكانت هذه الجلود التى تدبغ تجلب إليها من بلاد اليمن وعمان وهجر وبقية المدن الإسلامية الأخرى ثم تدبغ بها وتصدر إلى مصر والحبشة وفارس وما وراء النهر[1]، كما عرفت مكة صناعية الحلوى التى تفننوا فى إعدادها وذلك منذ العهد الفاطمى وعرفت أيضاً المراوح اليدوية والحصر، والزنابيل [2].

وقد حدد المؤرخون المصادر الرئيسية للدخل فى مكة، وترتبط جميعها بالحج ارتباطاً وثيقا إذ تعتمد عليها الحياة الاقتصادية وهى :

١- الضرائب والمكوس على الحجاج والتجار.

٢- الجارة وخاصة فى مواسم الحج.

٣- الهبات والأوقاف والصدقات.

بالنسبة للمصدر الأول : فمعلوم أن أمراء مكة لجأوا إلى فرض الضرائب والمكوس على الحجاج والتجار منذ أن استقلت مكة عن

---

(١) أحمد فاروق : دباغة الجلود وتجارتها عند العرب ص (٥٣٨-٥٤٠).

(٢) محمد طاهر الكردى : التاريخ القويم (١٣٥/٢)، سعاد الحسن : النشاط التجارى فى مكة ص (١٩٥).

الخلافة العباسية، وأن الخلفاء العباسيين والفاطميين قد تباروا في إغداق الأموال على مكة والمدينة من أجل الحصول على نفوذ أسمى فيها .

أما بالنسبة للتجارة- وهي المصدر الثاني- فمعروف أن أسواق مكة تتحول في موسم الحج من أسواق محلية إلى أسواق عالمية، وتلتقي فيها بضائع ومنتجات الشرق والغرب، وتنشط فيها حركة البيع والشراء .

وقد كانت أشهر الحج منذ العصر الجاهلي وقبيل الإسلام موسماً تجارياً فريداً تقوم فيه الأسواق وتكثر فيه البضائع .

ويقول الرحالة ابن جبير[1] : ومكة أكثر البلاد نعماً وفاكهة ومنافع ومتاجر، فضلاً عما يتبه من الذخائر النفيسة كالجواهر والياقوت، والأمتعة العراقية واليمانية إلى غير ذلك من السلع الخراسانية والبضائع المغربية إلى ما لا ينضبط ما لو فرق بها على البلاد كلها لأقام الأسواق النافعة وتعم جميعها بالمنفعة التجارية .

كل ذلك في ثمانية أيام بعد الموسم، حاشا ما يطرأ بها على طول الأيام من اليمن وسواها . فما على الأرض من سلعة ولا ذخيرة إلا وهي موجودة فيها مدة الموسم .

---

(١) الرحلة (١١٩) .

أما المصدر الثالث من مصادر الدخل بالنسبة لمكة وأمراتها وقد يصيب أهلها أيضاً، فهو ما كان يتدفق فى شكل هبات وصدقات كانت تحمل إلى مكة كل عام تقريباً من خلفاء وملوك العالم الإسلامى .

وقد نشأت عادة حمل الأموال سنوياً وتوزيعها فى صورة صدقات وهبات منذ العهد الأموى، وتطورت فى العصر العباسى، واستمرت حتى نهاية العصر العثمانى عام ١٤٣٤هـ .

ويبدو أن الهدف من وراء هذه الهبات كان سياسياً وخاصة أثناء فترة الصراع بين الخلافتين العباسية والفاطمية على السيادة على الحرمين الشريفين، فقد أصبحت الصدقات والهبات مصدراً ثابتاً للدخل فى تاريخ مكة الاقتصادي .

ويمكن أن ندرك عظم هذا المورد بتقديم بعض الأمثلة :

وقد بلغت الجراية لأهل الحجاز من الأشراف وغيرهم فى عهد المعز لدين الله الفاطمى أربعمائة ألف درهم [١] .

وكانت صلة أمير مكة فى عهد المستنصر بالله الفاطمى ثلاثة آلاف دينار فى الشهر، وكانت ترسل إليه الخيول والخلع مرتين فى السنة .

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفاء (١٠١/١) .

أما حفيد قتادة محمد أبو نمى الحسنى، فقد تعهد السلطان بيبرس أن يدفع له مبلغ عشرين ألف درهم سنوياً لقاء الدعوة له فى الخطبة وضرب السكة باسمة وقبول بعض الشروط الأخرى [١].

أما عن الأوضاع الاجتماعية : فإن ثمة عوامل لها أثر كبير فى تكون الحياة الاجتماعية بمكة المكرمة فالأوضاع الاقتصادية المزدهرة، والصدقات المزدهرة، والصدقات والهبات من الخلفاء والسلاطين والتجار وغيرهم لها أثر فعال فى إنعاش الأحوال الاجتماعية، وكذلك الأوقاف، والمؤسسات الخيرية كالأربطة وغيرها .

وقد أدرك الخلفاء والسلاطين والتجار ذلك فساهموا فى بناء الأربطة التى تؤدى المحتاجين والوافدين لطلب العلم والمجاورين وغيرهم. فالسكن عامل من عوامل الاستقرار النفسى، وكانت بداية بناء الأربطة بمكة منذ مطلع القرن الخامس الهجرى [٢]، وقد تكون المجتمع المكى فى الفترة التى نحن بصدد دراستها من عدة طبقات : كطبقة

---

(١) د : ريتشارد مورتيل : الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة فى العصر المملوكى ص (٥٥).

(٢) الفاسى : شفاء الغرام (٥٢٧/١).

الأشراف وهم الطبقة الحاكمة، وطبقة القواد والقضاء والوزراء، وطبقة سكان مكة الأصليين ، وطبقة المجاورين وهم : من الحجاج والتجار والعلماء الذين وفدوا من مختلف بقاع العالم الإسلامى واستقروا بمكة واختلطوا مع سكانها. وتعداد السكان يتأثر بتأثر الوضع الأمنى والسياسى والاقتصادى بمكة المكرمة .

* * *

الفصل الرابع

إسهامات السلاطين والأمراء والقادة في إثراء الحركة العلمية

اشتهر سلاطين وملوك بنى أيوب ومن بتعهم من بحبهم للعلم والعلماء، فكان صلاح الدين يجمع حوله رجال العلم ويحضر مجالسهم ويستمع إليهم، ويشاركهم فى أبحاثهم [١].

وأما العزيز عثمان الذى خلف أباه صلاح الدين فى السلطنة فقد قال عنه ابن خلكان [٢] : إنه سمع الحديث من الحافظ السلفى، والفقيه أبى طاهر بن عوف الزهرى، وسمع بمصر من العلامة أبى محمد بن برى النحوى وغيرهم، انتهى .

ومثل ذلك يقال عن بقية سلاطين بنى أيوب، وبخاصة السلطان الكامل الذى قال عنه المقريزى [٣] : وكان يحب أهل العلم، ويؤثر مجالستهم، وعنده شغف بسماع الحديث النبوى، وكان يناظر العلماء وعنده مسائل غريبة من فقه ونحو يمتحن بها، فمن أجاب عنها قدمه وحظى عنده، وكانت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم، فينصب لهم

---

(١) السبكى : طبقات الشافعية (٣٢٩/٤).

(٢)وفيات الأعيان (٢٥١/٣).

(٣) السلوك : (٢٥٨/١).

أسرة ينامون عليها بجانب سريره ليسامروه، انتهى .

وإذا كانت هذه هى رغبة سلاطين بنى أيوب وملوكهم فى العلم، فإننا لا نعجب لكثرة ما أسسوه من مدارس درست فيها العلوم الدينية، وغير الدينية وصارت مراكز الحياة علمية نشيطة فى ذلك العصر .

واقتفى المماليك أثر بنى أيوب فى ازدهار الحركة العلمية .

وكان المماليك أنفسهم- رغم كونهم من أصول غير عربية متعددة- أصحاب فضل فى ازدهار النشاط العلمى فى مصر، من ذلك ما نسمعه عن ولع بعض السلاطين- مثل الظاهر بيبرس- بسماع التاريخ[1] .

كانت مكة المكرمة فى القرنين السابع والثامن الهجريين من أبرز مراكز العلم فى العالم الإسلامى بفضل كثرة العلماء بها فهى مقصد للعلماء من شتى الأقطار الإسلامية .

وكانت مكة المكرمة والمدينة المنورة تنافسان كبريات العواصم الإسلامية فى العلم بما ضمته من علماء وأدباء ومكتبات وإن صغرت ومدارس كان يدرس فيها فقه جميع المذاهب[2].

فبجانب المسجد الحرام الذى كان له دور كبير وهام فى النهوض بالحركة العلمية والثقافية بمكة المكرمية نلمس دور خلفاء وسلاطين

---

(١) ابن تغرى بردى : النحو الزاهرة (١٨٥/٧) .

(٢) عواطف نواب : الرحلات المغربية والأندلسية ص(٣٠٥).

وأمراء الدول الإسلامية بشؤون التعليم فى مكة المكرمة، وكان اهتمام هؤلاء نابعاً من إيمانهم بمكانتها المقدسة فى قلوب جميع المسلمين فجاء إسهامهم فى عدة نواحى مثل الأموال والهبات التى يقدمونها للعلماء وطلبة العلم، أو الأعمال الخيرية والأوقاف التى تصرف على طلبة العلم، أو إقامة المجالس العلمية الخاصة أو انشاء الأربطة التى يسكن بها العلماء وطلبة العلم الذين لا مأوى لهم أو إنشاء المدارس، أو إنشاء المكتبات أو إنشاء الدورس الخاصة على حسابهم والتى تلقى فى ساحات المسجد الحرام وهذا ما شجع العلماء وطلبة العلم على التوافد إلى مكة المكرمة والمجاورة بها فكانت حافزاً لهم للقدوم إلى مكة [1].

وسنقوم بتفصيل كل من هذه الإسهامات على حدة :

أولاً : الأموال والهبات :

حرص الخلفاء والسلاطين والأمراء منذ العصور الإسلامية الأولى على إرسال الأموال الوفيرة إلى سكان الحرمين الشريفين واختلف هؤلاء الخلفاء والسلاطين والأمراء فى تخصيص هذه الأموال فالبعض منهم خصصها لتصرف على الأمراء والوزراء وبعضهم خصصها لتصرف على فقراء الحرم والمحتاجين والبعض الآخر خصصها لتنفق على أصحاب المناصب وبعضهم خصصها لتصرف على العلماء وطلبة العلم بها وكانت هذه الأموال عوناً لهم على تلقى العلم .

---

(١) السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ص(٢٢٢).

وسنورد هنا بعض الأمثلة على ذلك حيث يذكر أن ملك إربل مظفر الدين كوكبورى كان يبعث كل عام صحبة مندوبه عمر بن إبراهيم الخلكانى [١] أموالاً كثيرة تصرف على الأعمال الخيرية والمحتاجين [٢] وخصص جزءا من هذه الأموال لتصرف على بعض العلماء بمكة المكرمة وكان يرسل مخصصات سنوية لبعض رجال العلم بمكة المكرمة .

ومن ذلك صلته إلى العالم الخضر بن محمد الإربلى [٣] الذى كان يقدره كثيراً حتى أنه أشركه مع عمر الخلكانى ليقوم بتوزيع الصدقات على المحتاجين والفقراء تحت إشرافه، وفى سنة ٦١١هـ حج الملك عيسى بن الملك العادل الأيوبى وتصدق فى الحرمين بمال عظيم [٤]؛ نال المنقطعون من العلماء وطلبة العلم نصيباً كبيراً منه وكان هذا المال عوناً لهم فى مواجهة حياتهم العلمية . وفى رجب سنة ٦٣٥هـ /١٢٣٧م قدم الملك المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول إلى مكة معتمراً

---

(١) هو عم المؤرخ ابن خلكان وكان يدرس فى بعض مدارس إربل، وكان ملك إربل مظفر الدين يثق به كثيراً وقدم إلى مكة وسمع الحديث بها : توفى سنة ٦٠٩هـ . الفاسى العقد الثمين(٦/٢٨٥) .

(٢) الفاسى : شفاء الغرام (٢/٢٣٤) .

(٣) أحد المجاورين بمكة وكان زاهدا توفى سنة ٦٠٨هـ، الفاسى : العقد الثمين (٤/٣١٧) .

(٤) الفاسى : شفاء الغرام (٢/٢٣٤) .

وتصدق فيها بأموال جزيلة فـي محاولـة منـه لكسـب ود أشـراف مكـة والمجاورين والعلماء وعامة أهل مكة [١].

كما حج الملك المظفر يوسف بن الملـك المنصـور نـور الديـن عمـر بن على بن رسول قادماً من اليمـن وذلـك سنة ٦٥٩هـ وتصدق بأموال جزيلة عمـت جميـع سـكان مكـة المكرمة [٢] وواصل سلاطين المماليك أعطياتهم وهباتهم لأهالى مكة المكرمـة ففـى سنة ٦٦٧هـ /١٢٦٩م حـج الظاهر بيبرس وقام أثناء حجه بأعمال بر كثيرة برهـن بهـا علـى مراعاتـه مصالح الأشراف والمجـاورين وعامة أهـل مكـة علـى السـواء، ويـروى أن صدقاته شملت جميع أهل مكة فضلاً عـن اهتمامـه الخـاص بالمجـاورين والفقهاء، كما وزع الملابس على المحتاجين ودفـع مبلغـاً مـن المـال إلى خواصه وأمرهم بتوزيعه على أهالى مكة سمراً[٣].

وكذلـك أمـر السـلطان المنصـور قـلاوون المملوكـى بصـرف النفقـات لأشـراف مكـة وعلمائها وقضاتـها وأصحـاب المنـاصب بـها وأجـرى لهـم الرواتب [٤].

---

(١) المقريزى : السلوك (٢٢٥/١).

(٢) الفاسى : شفاء الغرام (٢٤٠/٢) .

(٣) ابن فهد : إتحاف الورى (٩٤/٣)، د : ريتشارد مورتيل : الأحوال السياسية ص(٥٦).

(٤) الفاسى : العقد الثمين (٢٤٤/٢)، د : ريتشارد مورتيل : الأحوال السياسية ص(٥٩).

وفى سنة ٧٢٤هـ /١٣٢٣م حج سلطان مملكة مالى واسمه منسا موسى [١] ومعه ١٥ ألفاً من أتباعه فحمل معه مائة حمل جمل من الذهب ووزعه على أهالى الحرمين ولا سيما أهالى مكة المكرمة ومن بينهم علماؤها [٢].

وفى سنة ٧٣٢هـ حج الملك الناصر محمد بن قلاوون وتصدق على أهل الحرم والمجاورين والفقهاء[٣].

وكذلك عرف عن السلطان المملوكى برقوق أنه كان يبعث الذهب باستمرار إلى مكة المكرمة وخصصه للعلماء والفقهاء تشجيعاً لهم وقد بلغت مصروفاته على العلماء وطلبة العلم فى بعض المرات خمسين ألف دينار مصرى [٤].

والحقيقة أن هذه الهبات والأعطيات التى صرفها السلاطين والحكام

---

(١) منسا موسى بن أبى بكر تولى حكم مملكة مالى وكان عادلا فى حكمه عرف عنه الصلاح والتقوى وقد وسع مملكته حيث افتتح كثيراً من البلدان الإفريقية وضمها إلى مملكته . انظر القلقشندى : صبح الأعشى (٥/٢٧١-٢٨١)؛ عواطف نواب : الرحلات المغربية والأندلسية ص(٥٩).

(٢) السباعى : تاريخ مكة (١/٢٦٧)، ابن كثير : البداية والنهاية (١٤/١١٢)؛ الفاسى : شفاء الغرام (٢/٣٩٠)؛ العبيكان : الحياة العلمية والاجتماعية فى مكة ص(١٩١).

(٣) الجزيرى : الدرر الفوائد (١/٦٣٨).

(٤) الفاسى : شفاء الغرام (٢/٢٣٤).

كان لها تأثير كبير على أحوال العلماء وطلبة العلم وتساعدهم على اقتناء ما هم بحاجة إليه من كتب وأدوات وغيرها .

وتعتبر مواسم الحج مناسبات خاصة يوليها السلاطين عناية كبيرة حيث يفرقون الكثير من أموالهم وصدقاتهم وزكاتهم على فقراء البيت الحرام، إلى جانب حرصهم على إلغاء الضرئب والمكوس المقررة فى تلك البقاع الطاهرة والتى تشكل عبئاً ثقيلاً يعانى منه السكان، وبشكل خاص أولئك الذين يقاسون الفقر المدقع والحاجة الماسة للمال والطعام والمأوى بالإضافة إلى بذل الخلع السنية على حكام تلك الأماكن المقدسة تعويضاً لهم عن المكوس التى أسقطوها، غلاوة على تقسيم الإقطاعات الواسعة ذات الأراضى الزراعية الخصبة فى مصر والشام من أجل كسب رضاهم، فيتبعون فى معاملة رعايا البيت الحرام منهج أولئك السلاطين الحريصين على مساعدة الأهالى، ومد يد العون لهم كى يتيسر لهم ولو شىء قليل من العيش الكريم فى ظل حكم السلاطين المماليك.

ويمكننا أن نلاحظ جزءا من هذه الاتجاهات الطيبة فى حجة الناصر محمد بن قلاوون إلى الأراضى المقدسة عام (٧٩١هـ /١٣١٩م)

حيث يقول المقريزى [1] : قدم السلطان مكة بتواضع وذلة، بحيث قال للأمير بدر الدين جنكلى بن البابا : لازلت أعظم نفسى إلى أن رأيت الكعبة، وذكرت بوس الناس الأرض لى فدخلت فى قلبى مهابة عظيمة ما زالت حتى سجدت لله تعالى، وحسن له بدر الدين محمد بن جماعة أن يطوف راكبا، كما فعل النبى ﷺ فقال له ومن أنا حتى أتشبه بالنبى ﷺ ،والله لا طفت إلا كما يطوف الناس .

ومنع السلطان الحجاب من منع الناس أن يطوفوا معه، وصاروا يزاحمونه وهو يزاحمهم كواحد من الناس فى مدة طوافه وفى تقبيله الحجر، وبلغه أن جماعة من المغل ممن حج قد اختفى خوفاً منه، فأحضرهم وأنعم عليهم وبالغ فى إكرامهم، وغسل الكعبة بيده، وأخذ أزر إحرام الحجاج وغسلها لهم بنفسه، وأبطل سائر المكوس من الحرمين، وعوض أميرى مكة والمدينة عنها إقطاعات بمصر والشام، وأحسن إلى أهل الحرمين، وأكثر الصدقات.

ولم يقتصر الحرص على إيجاز فعل الخير فى أثناء تأدية فريضة الحج على الأمراء والمماليك وإنما شمل ذلك الحكام المسلمين فى البلاد

---

(١) المقريزى : السلوك (١٩٧/٢)، المقريزى : درر العقود الفريدة (٧٦/٢)، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (٥٩/٩).

القريبة والبعيدة دون تميز، وعلى سبيل المثال يقول المقريزى [١] قصد الأمير جوبان [٢] عمل خير بمكة، فدله بعض الناس على عين كانت تجرى فى القديم ثم تعطلت فندب لذلك بعض ثقاته وأعطاه خمسين ألف دينار وجهزه فى موسم سنة خمس وعشرين فلما قضى حجه تأخر بمكة وشهر أمره بها، فأعلم بعين فى عرفة فنادى بمكة : من أراد العمل فى العين فله ثلاثة دراهم فى كل يوم، فهرع إليه العمال، وخرج بهم إلى العمل، فلم يشق على أحد منهم ولا استحثه، وإنما كانوا يعملون باختيارهم، فأتاه جمع كبير من العرب، وعمل حتى النساء، إلى أن جرى الماء بمكة بين الصفا والمروة، فى ثامن عشر جمادى الأولى من هذه السنة[٣] فكانت مدة العمل أربعة أشهر، وكثر النفع بهذه العين، وصرفه أهل مكة إلى مزارع الخضروات[٤] .

---

(١) المقريزى : درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة (٢/٧٨)، والسلوك (٢/٢٧٤)، ابن اياس : بدائع الزهور (١/١٦٤).

(٢) جوبان هو نائب السلطنة بالعراق مقبل السلطان ابى سعيد بن خربندا ملك العراقين؛ الفاسى؛ شفاء الغرام (١/٣٤٧) .

(٣) يقصد بها سنة ٧٢٦ هـ .

(٤) الفاسى : شفاء الغرام (١/٣٤٧) .

ثانياً : إنشاء المدارس :

اهتم الخلفاء والسلاطين والأمراء فى تشييد المدارس بمكة المكرمة لتسهم فى تربية المقيمين بها وتعليمهم وتثقيفهم . وإذا كانت المدارس الإسلامية قد بدأت فى الظهور منذ منتصف القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، فإن ظهورها بمكة لم يبدأ إلا فى الربع الأخير من القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى [١]، وكانت المدارس بمكة منذ إنشائها قد اعتنت واهتمت بتدريس العلوم الدينية كالحديث والتفسير، والفقه، وعلوم التصوف، والعلوم العربية، وقليلاً ما تذكر كتب التراجم أن عالماً أو طالباً قد درس الشعر والعلوم العقلية كالمنطق والفلسفة [٢] .

ومنذ أن بدأ الاهتمام بإنشاء المدارس بمكة كانت تلك المدارس موزعة بين المذاهب الأربعة الرئيسية، وسارت هذه المدارس جنباً إلى جنب مع المسجد الحرام فى نشر العلم وأخذت على عاتقها مهمة التدريس ونشر العلم والمعرفة بين المسلمين، وتسابقت الحكام والأمراء والسلاطين إلى تأسيسها حتى كثر عددها وكان هؤلاء المؤسسون من مختلف أنحاء العالم الإسلامى .

ولعل السبب الرئيسى لذلك مكانة مكة المكرمة والمسجد الحرام فى

---

(١) عبد الرحمن صالح عبد الله : تاريخ التعليم فى مكة ص(٥٩).

(٢) على السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ص(٢٢٣).

قلوب المسلمين وهجرة أكثر العلماء المهتمين بالعلوم الدينية إلى مكة ولذلك فإن هذه الحقبة الزمنية أدت إلى رواج هذه المدارس وتولى الحكام والسلاطين والأمراء أمر هذه المدارس وأوقف عليها أوقاف مختلفة، وكثرة هذه المدارس يوضح مدى النهضة التعليمية التى شهدتها المدينة المقدسة فى القرنين السابع والثامن الهجريين .

ويعتبر عصر المماليك العصر الذهبى لإنشاء المدارس فى مكة، وكان الغرض من إنشاء المدارس هو تحقيق أهداف مذهبية، وسياسية وساهم الحكام والأمراء والسلاطين والتجار من شتى الأقاليم الإسلامية فى تأسيس هذه المدارس حتى أصبح عددها فى تزايد مستمر .

ومن المدارس التى تم تأسيسها تحت إشراف الأمراء :

مدرسة الأمير فخر الدين عثمان بن على المعروف بالزنجيلى [1] فى مكة، وقد نسبت إليه وعرفت بمدرسة الزنجيلى، وكان قد وقفها على الحنفية عام (٥٧٩هـ /١١٨٣م)[2].

---

(١) هو من كبار امراء الدولة الأيوبية وخاصة دولة المعظم توران شاه الأيوبى وقد شارك فى فتح اليمن سنة ٥٦٩هـ ولقب بالزنجيلى نسبة إلى القرية التى نشأ بها وتسمى زنجيلة ولما رجع توران شاه إلى مصر سنة ٥٧١هـ عينه على عدن والمناطق المحيطة بها وتوفى سنة ٥٨٣هـ . انظر الفاسى : العقد الثمين (١٦٩/٣).

(٢) الفاسى : العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين (١٦٩/٣) ، ابن فهد : اتحاف الورى (٥٤٩/٢) .

ويحدثنا النعيمى عن الزنجيلى فيقول : ولهذا الأمير أوقاف وصدقات بمكة واليمن ودمشق، وإليه تنسب المدرسة والرباط المتقابلان بباب العمرة بمكة المشرفة [١]، وهذا الرباط خصصه لسكنى المدرسين فيها، وممن درس بهذه المدرسة صديق بن يوسف بن قريش الحنفى [٢]، وشهاب الدين أحمد بن محمد الصاغانى المتوفى عام (٨٢٥)هـ ، وقد جهزها بتجهيزات عديدة منها إقامة مبنى مجاور لها خصصه لسكنى المدرسين الذين يدرسون بها واختار موقعها بالقرب من المسجد الحرام ليسهل على الطلبة والأساتذة الصلاة فى المسجد الحرام [٣].

وفى سنة (٥٨٠هـ/ ١١٨٥م) افتتحت طاب الزمان الحبشية مدرسة فى الموضع المعروف بدار زبيدة، ولا يذكر مصدرنا الوحيد عن هذه المدرسة وهو الفاسى أى معلومات سوى أن مؤسستها هى عتيقة الخليفة العباسى المستضىء بالله وقد خصصت هذه المدرسة لتدريس العلوم الدينية على المذهب الشافعى .

وفى العقد الرابع من القرن السابع الهجرى قامت فى مكة ثلاث مدارس جديدة هى : مدرسة النهاوندى، ومدرسة ابن أبى زكريا، ومدرسة ابن الحداد، ويذكر الفاسى أن مدرسة النهاوندى وجدت منذ أكثر من مائتى سنة والمعروف أن الفاسى ألف كتابه فى أخريات أيامه

---

(١) النعيمى : الدرس فى تاريخ المدارس(١/٥٢٦).

(٢) الفاسى : العقد الثمين (٥/٣٩) .

(٣) النجم عمر بن فهد : إتحاف الورى (٢/٥٤٩).

لذا يمكن أن نستنتج بأن هـذه المدرسة أنشئت قرابة عام ٦٣٠هـ وقد بنيت هذه المدرسة ملاصقة للمسجد الحرام بالقرب من باب السلام فى موضع يعرف قديماً باسم الدريبة [١] .

وأما المدرسة الثانية : فموقعها بـالقرب مـن المدرسـة المجاهديـة بالجانب الجنوبى مـن المسجد الحرام، ويحدثنا عنها الفاسى فيقـول : ومدرسة أبى علـى بـن أبـى زكريا قرب المدرسـة المجاهديـة، وتعـرف بمدرسة أبى طاهر المؤذن وتقع بالجانب الجنوبى من المسجد الحرام.

وتاريخ وقفها خمس وثلاثون وستمائة على ما فى حجرها وواقفها فيه مترجم بالإمام الشهيد، وما عرفت حاله [٢].

وإذا رجعنا إلى العقـد الثمين [٣] نجـد أن اسم المدرسة هـو مدرسة أبى على بن زكرى لا ابن أبى زكريا .

وأما المدرسة الثالثة : فمؤسسها أبـو المنصور عبد الحـق بـن عبـد الرحمن المهدى المعروف بابن الحداد، وقد أوقـف مدرسته علـى طلبة المذهب المالكى، وكان ذلك فـى ربيع الثانى سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٣م ، وأصبحت تعرف فى القرن التاسع الهجرى بمدرسة الأشراف الأدارسة لاستيلائهم عليها، وكانت تقـع بـالقرب مـن مدرسـة الأرسـوفى[٤] بالشبيكة

---

(١) الفاسى : العقد الثمين (٣٣٠/١)، بلاد الحجاز فى العصر الأيوبى ص(١٠٥).

(٢) الفاسى : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (٣٣٠/١).

(٣) (١١٨/١).

(٤) المصدر نفسه (٣٣٥/٥).

أسفل مكة وكان قد درس بها إمام المالكيين بالحرم أبو البركات القسطلانى .

وأما المدرسة الشرابية : فبناها عام (٦٤١هـ) الأمير العباسى شرف الدين إقبال الشرابى خادم المستنصر بالله العباسى وأحد قواده، وكانت تقع عن يمين الداخل إلى المسجد الحرام من باب السلام، وهناك إشارة إلى أنها استمرت فى أداء رسالتها حتى أواخر القرن الحادى عشر الهجرى السابع عشر الميلادى، وقد اهتم الشرابى بهذه المدرسة وجهزها بمكتبة وزودها بكتب عديدة ونادرة وخصصها لتدريس فقه المذاهب الأربعة وأمر بأن يدرس بها النحو والأدب كذلك وفتح المجال بالدراسة بها لجميع جنسيات الطلاب سواء كانوا عرباً أو عجماً وحتى لا تتعطل الدراسة بهذه المدرسة فقد خصص أوقافاً كثيرة بوادى نخلة ووادى مر ليكون دخلها مصروفاً على المدرسين والطلبة الذين يدرسون بها [١] .

ويقال بأن الذى أوقفها الخليفة المستنصر بالله العباسى ولكن الذى قام ببنائها وأشرف على البناء هو الأمير شرف الدين إقبال الشرابى نيابة عن الخليفة وقد عرفت باسم بانيها وليس باسم واقفها [٢].

أما المدرسة الأرغونية[٣] : مؤسسها الأمير أرغون الدوادار أحد مماليك السلطان المملوكى المنصور قلاوون وقد ولاه نيابة حلب، وكان

---

(١) باقاسى : بلاد الحجاز (١٠٦).

(٢) جميل حرب : الحجاز واليمن فى العصر الأيوبى ص(١٩٧).

(٣) د. محمد عبد الرحمن الشامخ : التعليم فى مكة والمدينة آخر العهد العثمانى ص(٦٩) .

له ميل للمذهب الحنفي فأقبل على دراسته ومهر فيه إلى أن صار يعد من أهل الإفتاء، وقد دعاه ميله الشديد إلى هذا المذهب إلى تقرير دروس في الحنفية بهذه المدرسة التي كانت تقع على يسار الداخل إلى المسجد الحرام من الباب المعروف بباب العجلة، وأول من درس بهذه المدرسة يوسف بن على الحنفي المكي، فقد درس بها عدة سنين[1].

وكان لأمراء مكة مساهمة أيضاً في إنشاء المدارس حيث أنشأ الأمير الشريف عجلان بن رميثة سنة ٧٧٢هـ مدرسة خصصها لتدريس العلوم الدينية، وكذلك أنشأ الأمير الشريف جار الله بن حمزة بن راجح بن أبي نمي مدرسة سنة ٧٨٩هـ وكانت ملاصقة للمسجد الحرام وخصصها لتدريس العلوم الدينية كالقرآن وعلومه، والفقه على المذاهب الأربعة[2].

ثالثاً : إنشاء الأربطة :

تعتبر الأربطة واحدة من المؤسسات التعليمية بمكة المكرمة وأسهمت جنباً إلى جنب مع المسجد الحرام والمدارس والكتاب للنهوض بالحركة العلمية وقد فتحت الأربطة أبوابها للعلماء وطلبة العلم

---

(١)لقد سمع وأجاز له كثير من العلماء، وحدث ودرس وأفتى، وله مؤلفات كثيرة في العروض والشعر وسمع منه كثيرون وقد ناب عنه الشهاب الحنفي بمقام الحنفية وعن القاضي شهاب الدين الطبري ثم عزل عنها وتوفي بمكة المكرمة ودفن بها سنة (٧٦١هـ) . الفاسي : العقد الثمين (٤٨٤/٧-٤٨٥).

(٢) العبيكان : الحياة العلمية بمكة ص(٧٥).

الذين كانوا يتنقلون فى أنحاء العالم الإسلامى طلباً للعلم، ورأى الخلفاء والسلاطين والأمراء بأن إنشاء هذه الأربطة ضرورة لابد منها لأنها توفر جميع سبل الراحة للفقراء والمنقطعين وطلاب العلم والمجاورين للمسجد الحرام من كافة الأجناس، وهذه الأربطة كانت موقوفة على كافة المسلمين من كافة الأجناس والمذاهب وبعضها كان موقوفاً على الرجال والآخر على النساء وبعضها كان وقفاً على طائفة الصوفية أو على أحد المذاهب الإسلامية والبعض خاص بجنس معين من الناس وبعضها خاص بالغرباء والمجاورين .

ولا شك بأن إنشاء هذه الأربطة أدى بدوره إلى اندفاع المجاورين إلى الإقبال على طلب العلم بمكة طالما أنهم قد وجدوا بها المدارس التى يدرسون بها والأربطة التى يعيشون فيها [1].

ولم تكن هذه الأربطة مجرد إقامة لهؤلاء المجاورين فقط، وإنما كانت تعقد فيها حلقات التدريس وتوضع بها الكتب القيمة والنفيسة[2] وهذا ما جعل مكة وطلابها يرتادون هذه الأربطة ليطلعوا على ما تحويه مكتباتها من كتب وعلوم هامة، وكان نزلاء الأربطة بمكة يتدارسون العلم ويتذاكرون، وينتهزون فرصة اجتماعهم لتناول المعلومات والإجازات مما

---

(١) المالكى : بلاد الحجاز ص(٢٠٧-٢٠٨).

(٢) ابن فهد : إتحاف الورى (٥٦٤/٢)، عبد الله الماجد : المكتبات فى جزيرة العرب (مجلة العرب، السنة الثانية، رجب ١٣٨٧هـ) ص(٨٩٤).

جعل للأربطة دوراً علمياً كبيراً وفضلاً عن ذلك فإن بعض هذه الأربطة كانت مخصصة لسكنى طلبة بعض المدارس التى أنشأها الخلفاء والسلاطين[١].

وسنتناول الأربطة التى أقامها الخلفاء والسلاطين والتى كانت قائمة خلال القرنين السابع والثامن الهجريين [٢].

١-رباط دار الخيزران : بناه والى مكة الذى لم تذكر المصادر اسمه سنة ٤٠٢هـ وكان يقع بالقرب من الصفا[٣].

٢-رباط الخاتون : أنشأته الخاتون الشريفة فاطمة بنت الأمير أبى ليلى محمد بن أبى سروان الحسينى وذلك سنة ٥٧٨هـ /١١٨١م، وعرف باسم رباط ابن محمود[٤].

٣- رباط قايماز : أوقفه أحد أمراء السلاجقة وهو الأمير قايماز عبد الله بن قليج أرسلان السلجوقى سنة ٥٨٩هـ / ١١٨٢م وخصصه للمقيمين

---

(١) العبيكان : الحياة العلمية والاجتماعية بمكة ص(٦٦).

(٢) جميع الكتب والرسائل التى كتبت تاريخ مكة أسهمت فى ذكر الأربطة فلا حاجة إلى التكرار لذلك سأورد فى هذا البحث أسماء الأربطة التى بناها الخلفاء والسلاطين والأمراء وسنة بنائها فقط .

(٣) الفاسى : شفاء الغرام (٣٣٣/١).

(٤) الفاسى : العقد الثمين (١١٨/١).

والمجاورين والمنقطعين في مكة ممن هم على مذهب الإمام أبي حنيفة[١].

٤- رباط الزنجيلي : أنشأه الأمير عثمان بن على الزنجيلي نائب الدولة الأيوبية على عدن، وذلك سنة ٥٧٩هـ[٢] وجعل مكان هذا الرباط أمام مدرسته عند باب العمرة والتي سبق الحديث عنها .

٥-رباط أم الخليفة الناصر العباسي : أنشأته سنة ٥٧٩هـ /١١٨٣م ويبدو أنه بقي فترة طويلة حتى يقال : إن أمير مكة عطيفة بن أبي نمي كان يسكن هذا الرباط [٣] .

٦-رباط أبي رقيبة : أوقفه الوزير عبد الرحيم بن على العسقلاني وهو وزير السلطان صلاح الدين الأيوبي وقد حدد هذا الوزير في وقفيته لهذا الرباط بأن تكون أطول مدة يمكث فيها المقيم ثلاث سنوات .

٧-رباط ربيع : أوقف هذا الرباط السلطان الملك الأفضل نور الدين على بن الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب صاحب دمشق وذلك سنة ٥٩٤هـ / ١١٩٧م .

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام (١/٣٣٣).

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

٨- رباط ابن عنايم : أوقفه ملك الهند محمد بن أبى على الدار سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م واشترط ألا يتجاوز عدد ساكنيه عن عشرة أشخاص[١] .

٩-رباط الشرابى : ينسب هذا الرباط إلى الأمير إقبال الشرابى أحد قادة الخليفة المستنصربالله العباسى سنة ٦٤١هـ /١٢٤٣م وهذا الرباط كان قريباً من المسجد الحرام تحت منارة بنى شيبة[٢]، وكان هذا الرباط يتكون من دورين، الدور الأول كان سكناً للمدرسين والمشرفين على المدرسة، والدور الثانى كان سكناً للطلبة [٣] .

١٠-رباط الصفا : أنشأه سلطان بلاد فارس شاه شجاع بن محمد المظفر اليزيدى [٤] وذلك سنة ٧٧١هـ [٥].

رابعاً : إنشاء المكتبات :

وبجانب المدارس والأربطة أقام الحكام والسلاطين والأعيان

---

(١) الفاسى : شفاء الغرام (٣٣٥/١).

(٢) المصدر نفسه (٣٣٠/١) .

(٣) المالكى : بلاد الحجاز ص(١٤٨).

(٤)هو شاه شجاع بن محمد بن مظهر اليزيدى ملك شرايز وما حولها اشتهر بحب العلم وله إلمام بالعربية. وكان ينظم الشعر ويحب مجالسة الأدباء انظر : ابن حجر : الدرر الكامنة (١٨٧/٢).

(٥)الفاسى : شفاء الغرام، (٣٣٠/١)، العبيكان : الحياة العلمية بمكة ص(٢١٤) .

المكتبات التى تعتبر مكملة للمدارس ولها دور كبير فى الحركة العلمية والتعليمية وكانت هذه المكتبات تزخر بالكتب النفيسة التى يجلبها علماء البلدان الإسلامية معهم أثناء قدومهم إلى مكة المكرمة .

ومن أهم المكتبات التى كانت موجودة بمكة، مكتبة الحرم المكى الشريف، فقد كانت هذه المكتبة تضم العديد من الكتب المتخصصة فى شتى العلوم والمعارف ولكن هذه الكتب لم تحفظ فى غرف خاصة، وإنما كانت موضوعة فى دواليب فى دائر حائط الحرم المكى، وكانت هذه الدواليب مكشوفة وهذا ما يجعلها عرضة للتلف وخاصة فى الوقت الذى تهطل فيه الأمطار [١]، وهذا ما تنبه له بعض من السلاطين والعلماء فقاموا بإنشاء خزائن للكتب داخل المسجد الحرام [٢].

هذا وكانت بعض الأربطة الموجودة بمكة تضم العديد من الكتب والمراجع التى يحتاجها طلاب العلم والمعرفة فقد كان برباط ربيع مجموعة من الكتب النفيسة ومن بينها الكتب التى أوقفها السلطان الملك الأفضل نور الدين على بن صلاح الدين الأيوبى فى ذلك الرباط كمثل كتاب المجمل فى اللغة لابن فارس، وكتاب الاستيعاب لابن عبد البر [٣].

---

(١) البتنونى : الرحلة الحجازية (٥٨).

(٢) ابن جبير : الرحلة ص(٨٣).

(٣) ابن فهد : إتحاف الورى (٥٦٧/٢).

وأصبح رباط ربيع فيما بعد أحفل الأربطة التى كانت موجودة بمكة من ناحية الكتب، وأصبح مرتاداً لكثير من العلماء والطلاب الذين جاءوا اليه للاطلاع على ما به من كتب نادرة ونفيسة [١] .

ويبدو أن هذا الرباط يضم مكتبة تعد من أكبر المكتبات بمكة المكرمة والدليل على ذلك أن المؤرخ تقى الدين الفاسى عند ترجمته لعدة علماء ذكر بأن هؤلاء العلماء أوقفوا كتباً فى رباط ربيع، فعند ترجمة لعبد الله بن أبى بكر المعروف بالكردى المتوفى فى سنة ٧٨٥هـ ذكر بأنه أوقف كتباً كثيرة جعل مقرها رباط ربيع[٢]، وعند ترجمته ترجمته لعلى بن محمد بن سند المصرى الفراشى بالمسجد الحرام والذى كانت وفاته سنة ٨٢٧هـ ذكر بأنه أوقف كتباً اقتناها وجعل مقرها برباط ربيع .

وقد حرص ملك فارس شاه شجاع حينما أنشأ رباطه بمكة المكرمة سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م ان يجعل به مكتبة تضم كتباً كثيرة [٣] .

وهناك أيضاً رباط الخوزى بمكة أوقف به عدد كبير من الكتب [٤].

وكانت بعض المدارس التى أسسها الخلفاء والسلاطين والأعيان

---

(١) الماجد : المكتبات فى جزيرة العرب ص(٨٩٤).

(٢) الفاسى : العقد الثمين (١١٦/٥، ٢٣١/٦-٢٣٢) .

(٣) الفاسى : المصدر نفسه(٤/٥).

(٤) الفاسى : المصدر نفسه (١٣٧/٧).

تضم مكتبات فى داخلها كمثل المدرسة الشرابية التى بناها الأمير شرف الدين إقبال الشرابى خادم المستنصر بالله العباسى سنة ٦٤١هـ /١٢٤٣م والتى كانت تقع على يمين الداخل إلى المسجد الحرام من باب السلام، وقد ضمت هذه المدرسة التى أسسها الشرابى مكتبة ضخمة وزودها بكتب عديدة ونادرة [١] وقد وصف ابن فهد فى كتابه إتحاف الورى بأن مكتبة هذه المدرسة كانت تضم كتباً نفيسة فى فنون العلم والمعرفة[٢] .

خامساً : الدروس الخاصة :

لقد حرص بعض السلاطين والأمراء على إقامة الدروس الخاصة على حسابهم وهذه الدروس كانت تلقى فى المسجد الحرام أو فى بعض الأربطة أو المدارس فكانوا يدفعون لمن يقوم بتدريسها أجراً معلوماً، وقد بلغ هذا الأجر فى بعض الحالات مبلغاً كبيراً إذ بلغ ٢٠٠ مثقال ذهب فى السنة، وكانت هذه الدروس تأخذ شكل الحلقات المعروفة فى المساجد، والحقيقة أن هذه الدروس كان لها دور علمى كبير فقد ساهمت فى نشر العلم بين صفوف المسلمين من أبناء مكة والوافدين إليها [٣] وكان من بين تلك الدروس التى أقامها السلاطين والأمراء :

---

(١) الفاسى : شفاء الغرام (١/٣٣٠) .

(٢) المالكى : بلاد الحجاز ص(١٩٤).

(٣) العبيكان : الحياة العلمية ص(٧٦).

(١)الدرس الذى قرره بشير الجمدار أحد أمراء المماليك بمصر وولى تدريس هذا الدرس أشهر علماء مكة فى تلك الفترة أمثال القاضى جمال الدين محمد بن ظهيرة [١]، وقاضى الحرمين أحمد العقيلى الملقب محب الدين النويرى [٢].

(٢)الدرس الذى قرره شاه شجاع بن محمد اليزيدى ملك شيراز (ت : ٧٨٧هـ)فقد قرر درساً فى الحديث فى المسجد الحرام وممن ولى تدريسه على نور الدين الكنانى الفوى (ت : ٨٧٢هـ) وكان يأخذ لقاء تدريسه نحو مائتين مثقال من الذهب سنوياً [٣].

(٣)الدرس الذى قرره يلبغا الخاصكى [٤] أحد مماليك الملك

---

(١) ولد بمكة المكرمة سنة ٧٥١هـ ودرس بها على يد شيوخها وعلمائها وقام برحلات علمية عديدة زار دمشق ومصر وحصل على إجازات علمية من عدة علماء وكان لديه إلمام واسع باللغة العربية والفقه وعين قاضياً وخطيباً ومفتياً بمكة المكرمة توفى سنة ٨١٧هـ .انظر الفاسى العقد الثمين (١٢٣/٣).

(٢) تولى القضاء والخطابة بمكة المكرمة سنة ٧٧٣هـ وتوفى سنة ٧٧٩ بمكة . الفاسى : المصدر نفسه (١٢٦/٣).

(٣) الفاسى : العقد الثمين (١٣٠/٦)، العبيكان، الحياة العلمية ص(٧٧).

(٤) يلبغا بن عبد الله الخاصكى القصر الناصرى العمرى عرف عنه كثرة مبراته وصدقاته وخاصة فى بلاد الحجاز وهو الذى أمر بإسقاط المكوس عن حجاج بيت الله الحرام، وصارت إليه الرئاسة بمصر فى عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين مات مقتولا فى شهر ربيع الآخر سنة ٧٦٨هـ /١٣٦٦م. انظر : ابن حجر : الدرر الكامنة (٢١٣/٥-٢١٥)؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (٣٥/١١).

الناصر ابن قلاوون فقد قرر درساً فى الفقه الحنفى بالمسجد الحرام وقد عين العلامة محمد بن محمد بن سعيد الصغانى (ت: ٧٨٠هـ) ليتولى تدريس هذا الدرس وبعد وفاته عين ابنه أحمد مكانه، وقد أقبل على هذا الدرس عدد كبير من الطلبة الذين ظهرت شهرتهم العلمية فيما بعد، كمحمد بن كمال بن على الهندى الدهلوى الملقب بشمس الدين الحنفى (ت : ٧٩٣هـ) ، وأحمد بن أبى البركات محمد بن أبى السعود بن ظهيرة (ت : ٨٢٣ هـ)، وكذلك أحمد بن عبد الله الشهاب المكى (ت:٨٠٩ هـ) [١] .

(٤)الدرس الذى قرره الأمير أرغون الدوادار [٢] فى مدرسته التى أسسها بمكة والتى كانت تقع على يسار الداخل إلى المسجد الحرام من الباب المعروف بباب العجلة [٣] .

سادساً : المجالس العلمية :

حفلت مكة المكرمة فى القرنين السابع والثامن للهجرة بوجود المجالس العلمية التى كان لها دور كبير فى الحركة العلمية وقد شجع

---

(١) الفاسى : العقد الثمين (٢٦٦/٢)، العبيكان : الحياة العلمية بمكةص(٧٨).

(٢) هو سيف الدين أرغون شاه بن عبد الله الدوادار الناصرى، برع فى الفقه وتولى نيابة السطنة بمصر للناصر محمد نحو ست عشرة سنة، ثم ولى نيابة حلب أربع سنين ومات فى سنة ٧٣١ هـ /١٣٣٠م . ابن حجر : الدرر الكامنة (٣٧٤/١).

(٣) العبيكان : المرجع السابق ص (٧٨) .

بعض الأمراء على إقامة هذه المجالس العلمية وكانت عبارة عن ندوة لكبار العلماء تجلى فيها روح البحث العلمي، ومن أشهر المجالس العلمية بمكة مجلس الأمير حسن بن عجلان وابنه بركات وحفيده محمد وكان هؤلاء الأمراء يمتازون بكفاءة علمية فائقة [١] ، ويذكر أن أحمد بن جار الله بن زائد السنبسي المكي الشافعي (٧٤٦هـ/ -٨٢٧هـ) قد لازم أمير مكة الشريف حسن بن عجلان وقد حصل منه على دور وسقايا كثيرة بالوادى [٢].

ولا شك بأن ذلك عامل من عوامل إثراء الحركة العلمية بمكة المكرمة.

---

(١) السباعي : تاريخ مكة (١/٣٢٨) .

(٢) العبيكان : الحياة العلمية بمكة ص(٩١).

الفصل الخامس

إسهامات التجار والأعيان فى إثراء الحركة العلمية بمكة المكرمة

وكما كان للسلاطين والأمراء دور فى تنشيط وإثراء الحركة العلمية بمكة المكرمة كان أيضاً لبعض التجار الموسرين والأعيان دور ملموس فى ذلك حيث ساهم الكثير من تجار البلدان الإسلامية وأصحاب الثراء بمكة المكرمة فى إنشاء المدارس والأربطة وإقامة الدروس الخاصة فكانت أقدم مدرسة بمكة المكرمة بناها أحد التجار وهو التاجر العسقلانى عفيف الدين بن عبد الله بن محمد الأرسوفى (ت : ٥٩٣هـ /١١٩٦م) وعرفت باسم مدرسة الأرسوفى وكان موقعها بالقرب من باب العمرة من جهة الشبيكة، وهى أول مدرسة نظامية تأسست بمكة المكرمة[1].

وكما أنشأ التجار المدارس أنشأوا الأربطة أيضاً لتأوى الوافدين إلى مكة المكرمة من أجل طلب العلم وتأوى سكان الأقاليم التى ينتمون إليها وخصص بعضها لسكن الحجاج فى أيام الحج، وأهم الأربطة التى بناها التجار بمكة المكرمة :

(١) رباط البخارية : أوقفه مجموعة من تجار مدينة بخارى واشترطوا

---

(١) الفاسى : شفاء الغرام (٣٣٢/١)، المالكى : بلاد الحجاز ص(١٩٠) .

أن يكون خاصاً لمأوى الحجاج القادمين من بلاد بخارى وأن يسكنه الفقراء المقيمون فى مكة طوال السنة ما عدا موسم الحج، كما أنشأ تجار مدينة بخارى أربطة أخرى فى مواقع متفرقة بمكة المكرمة [١].

(٢) رباط الدمشقية : أسسه تجار مدينة دمشق واشترط فى وقفيته بأن يخصص للفقراء من أهل الشام والعراق العرب منهم والعجم [٢].

(٣) رباط المغاربة : أوقفه مجموعة من تجار بلاد المغرب لكى يكون سكناً للمقيمين فى مكة المكرمة من طلبة العلم للرجال دون النساء وأن يسمح للحجاج الذين لا مأوى لهم بالسكن فى هذا الرباط وقت الحج وكان هذا الرباط يقع عند باب العمرة وقد أزيل فى التوسعة الأخيرة التى قام بها جلالة الملك عبد العزيز رحمه الله سنة ١٣٧٥ هـ [٣].

(٤) رباط الحضارمة : وقد بناه مجموعة من تجار مدينة حضرموت، وكان شرط وقفيته ينص على تخصيصه لطلبة العلم المقيمين فى مكة المكرمة وأن يكون سكناً للحجاج القادمين من حضرموت فى فترة الموسم ، ويذكر الدكتور سليمان مالكى أن هذا الرباط لا زال موجودا حتى الوقت الحاضر وقد جدد بناؤه فى العصر الحديث [٤].

---

(١) العبيكان : الحياة العلمية ص(٢٠٦ /٢٠٧).

(٢) المرجع نفسه والصفحة نفسها .

(٣) سليمان مالكى : بلاد الحجاز ص(١٤٣) .

(٤) سليمان مالكى : بلاد الحجاز ص(١٤٤) .

ولم تكن هذه الأربطة التى بناها الخلفاء والسلاطين والتجار بمكة المكرمة هى الوحيدة، وإنما كان هناك عدد كثير من الأربطة بناها الموسرون من الفقهاء والعلماء والقضاة [١].

ولم يكن مساهمة التجار قاصرة على بناء المدارس والأربطة وإنما ساهموا أيضاً بإقامة الدروس الخاصة على حسابهم وعلى نفقتهم فكانوا يدفعون رواتب مجزية لمن يقوم بتدريس هذه الدروس التى كانت تعقد فى المسجد الحرام وبعض المدارس بمكة المكرمة .

<u>وكان من بين تلك الدروس :</u>

الدرس الذى قرره بدر الدين الخروبى وهو أحد تجار الكارم فى مصر وجعل مكانه فى المسجد الحرام وقد تولى تدريسه على بن محمد الحسينى الفاسى الذى تولى مباشرة الحرم قبل سنة ٧٤٠ هـ [٢].

---

(١) لقد تناولت الكتب التى تحدثت عن مكة المكرمة الحديث عن هذه الأربطة بالتفصيل فلا حاجة إلى تكرارها وقد تناولت فقط ذكر الأربطة التى بناها التجار .

(٢) العبيكان : الحياة العلمية بمكة، ص(٧٦) .

الفصل السادس

دولة بنى رسول ودور حكامها فى الحركة العلمية بمكة المكرمة

خلف بنو رسول الأيوبيين فى حكم اليمن سنة ٦٢٦هـ وقد جاءوا إلى اليمن مع الأيوبيين، وامتد نفوذهم من حضرموت إلى مكة المكرمة، وظل حكمهم سائداً أكثر من قرنين، وهم ينتسبون إلى أول ملوكهم شمس الدين بن رسول الذى ينتهى نسبه إلى الغساسنة الذين هاجروا من اليمن إلى الشام بعد انهيار سد مأرب وقدم على بن رسول إلى اليمن مع أولاده الأربعة ضمن إحدى الحملات الأيوبية، وكان أول ظهور لبنى رسول على مسرح الأحداث اليمنية عندما قام طغتكين بن أيوب (٥٧٩ - ٥٩٣ هـ) بتولية شمس الدين على بن رسول نائباً عنه فى مدينة حيس وأعمالها، وإلى عهد الأتابك سنقر (٥٩٨ - ٦٠٨ هـ) أتابك الملك الناصر أيوب بن طغتكين نقله منها وولاه على حصن حب وأقطع ابنه بدر الدين الحسين بن على بن رسول منطقة ريمة [١].

وأقطع ابنه الآخر فجر الدين أبا بكر وصاباً، ثم قام الناصر أيوب بإقطاع بدر الدين الحسن : حرض والهلية [٢].

---

(١) عبد الله عبد السلام : مدينة حيس اليمنية ص(١٧).

(٢) احمد جابر عفيف : الموسوعة اليمنية (١/١٧٥)

ومن هنا يتضح أن بنى رسول أصبحوا من المقربين إلى حكام اليمن الأيوبيين مما مكنهم من لعب دور أكبر بعد ذلك - وخاصة بدر الدين الحسن- فى تولية سليمان بن سعد الدين شاهنشاه ملكاً على اليمن بعد مقتل الناصر أيوب بن طغتكين، وكنوع من رد الجميل قام سليمان بإقطاع بدر الدين صنعاء.

وفى عهد الملك المسعود يوسف بن السلطان الملك الكامل (٦١٢-٦٢٦ هـ) لعب بنو رسول دوراً بارزاً فى تثبيت ملكه فازدادوا مكانة عنده، وعين بدر الدين الحسن أستاذ داره سنة (٦١٤ هـ) ثم ولاه صنعاء سنة (٦١٨ هـ) وجعلها إقطاعة، وعين أخاه نور الدين عمر بن على بن رسول والياً على الحصون الوصابية، ثم ولاه سنة (٦١٩ هـ) على مكة[1].

وبعد وفاة المسعود الأيوبى فى مكة سنة (٦٢٦ هـ) أخذ نائبه على اليمن نور الدين عمر بن على بن رسول يمهد لاستقلاله عن الدولة الأيوبية فى مصر، فقام بعزل نواب الأيوبيين على أقاليم وحصون اليمن واحداً تلو الآخر وعين مكانهم نواباً ممن يثق بهم، ولما دانت له البلاد خلع طاعة بنى أيوب واستقل بالملك سنة (٦٢٨ هـ) وتلقب بالمنصور واتخذ تعز - عاصمة الأيوبيين فى اليمن - عاصمة لدولته، وبذلك استكمل نور الدين مظاهر استقلاله عن الدولة الأيوبية، وحكم اليمن

---

(١) الخزرجى : العقد اللؤلؤية (١/ ٢٣).

تحت مظلة الخلافة العباسية مباشرة .

كانت لحكام بنى رسول صلات قوية بمكة المكرمة، وقد تركوا فيها مآثر عديدة منها ثلاث مدارس أقدمها المدرسة المنصورية ومؤسسها السلطان عمر بن رسول الملقب بالمللك المنصور، وقد حكم بين عامى (٦٢٦ هـ) و (٦٤٧ هـ) وكان محباً للعلم والعلماء، فقد بنى - بالإضافة إلى مدرسته فى مكة- ست مدارس فى اليمن ثلاث منها فى زبيد، ورتب فى كل مدرسة بناها مدرساً ومعيداً وإماماً ومؤذناً ومعلماً وأيتاماً يتعلمون القرآن [1] وكان تاريخ وقفها عام (٦٤١ هـ)، وقد اهتم السلطان عمر بن رسول بهذه المدرسة، وجهزها بكامل تجهيزاتها، وساندته زوجته؛ حيث أمرت بتوفير الماء للطلاب الذين يدرسون بهذه المدرسة؛ فحفرت بئراً داخلها، وشرب منها الطلاب، وجعل فيها السلطان عمر مدرساً ومعيداً وإماماً للصلاة ومؤذناً ومعلماً، وجعل بها جانباً لتدريس القرآن الكريم، وسمح للطلاب الأيتام بتعليم القرآن الكريم بهذه المدرسة .

وأما موقعها فبالقرب من باب العمرة بين المدرسة الزنجيلية ومدرسة طاب الزمان، وأما الموضوعات التى كانت تدرس بها : فهى الحديث وفقه الإمام الشافعى، وممن ولى تدريس الحديث بها القاضى على بن أحمد بن عبد العزيز العقيلى (٧٢٤-٧٩٨هـ) وابنه القاضى عبد العزيز بن على العقيلى (٧٧٨-٨٢٥هـ)، ومن الذين عملوا بالإعادة فيها على بن

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٨٤) .

أحمد بن سلامة (٧٤٦-٨٢٨ هـ)، وعلى هذا من مواليد مكة، رحل فى سبيل العلم إلى بغداد والشام ومصر وأذن له أكثر من شيخ فى الإفتاء والتدريس، لكنه لم يكثر من الإفتاء احتراماً لقضاة مكة[١]، وإذا علمنا أن القضاة كانوا يعملون كمدرسين أدركنا مترلة المعيد بالمقارنة مع المدرس، فالمدرس أغزر علماً وأعلى مقاماً من المعيد.

وبحلول منتصف القرن العاشر الهجرى زالت معالم هذه المدرسة، فى معرض حديثه عن زيارة سليمان باشا الوزير العثمانى لمكة عام ٩٤٥هـ يذكر القطبى[٢] أنه بعد الطواف والسعى نزل قرب باب العمرة فى الموضع الذى كان مدرسة للملك المنصور.

وبنى السلطان على بن داود الملقب بالملك المجاهد مدرسة بمكة عام ٧٤٠ هـ عرفت بالمدرسة المجاهدية، وفى معرض حديثه عن منجزات الملك المجاهد يقول الخزرجى: وله من الآثار الدينية مدرسة فى مكة المشرفة ملاصقة للحرم الشريف يصلى المصلى فيها وهو يشاهد البيت الحرام، رتب فيها إماماً ومؤذناً وقيماً ومعلماً وأيتاما ومدرساً وطلبة[٣].

وقد جعل للمدرسة أوقافاً من أملاكه الخاصة، وجعل الأوقاف فى

---

(١) الفاسى: العقد الثمين (٤٥٣/٥-٤٥٥) (١٣٣/٦، ١٤٠).

(٢) القطبى: البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ص(٨٨).

(٣) الخرزجى: العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية (١٢٦/٢).

ثلاثة مواضع من وادي زبيد زيادة في الحرص على توفير الأموال سنوياً للمدرسة، فكان جزء من الأوقاف في أعلى وادى زبيد وجزء في أسفله والجزء الثالث في أوسطه، حتى إذا لم تغل الأوقاف في جهة معينة كانت غلال الجهة الأخرى مورداً للمدرسة تستعين به على تسيير أمورها في ذلك العالم [١].

ودرس بها عدد من العلماء نذكر منهم القاضي جمال الدين محمد بن ظهيرة المخزومي توفي (٨١٧ هـ) وقد ولي التدريس بها سبع عشرة [٢] سنة، وفي أوخر أيامه تنازل عن التدريس فيها لولده أحمد بن محمد بن ظهيرة قاضي مكة وفقيهها، وكان هذا واسع الاطلاع، حفظ الألفية في النحو والمنهاج للنووي، وحضر دروساً في الأصول والمعاني والبيان والمنطق عند الشيخ حسام الدين الأبيوردي بمكة، كما حضر دروساً في التفسير والأصول والعربية عند الشيخ الوانوغي .

وأخذ عن الشيخ بدر الدين الزمزمي الفرائض، والحساب، والفلك ودرس بالمسجد الحرام، وعندما مرض والده حل محله في التدريس بالمدرستين البنجالية والمجاهدية [٣] فدرس بها عشرة أعوام (٨١٧هـ - ٨٢٧ هـ)، كما درس بها أيضاً القاضي أحمد بن محمد العقيلي الملقب

---

(١) المصدر نفسه ص(٦٨).

(٢) الفاسي : العقد الثمين (٥٨/٢).

(٣) المصدر نفسه (١٣٩/٣-١٤٢).

محب الدين النويرى، وكان قد بدأ بالتدريس فى المسجد الحرام، ثم أخذ يدرس درس بشير الجمدار منذ عام (٧٨٩هـ)، وأضيف إليه بعد ذلك التدريس بالمدرسة المجاهدية واستمر فى ذلك إلى أن توفى عام (٧٩٩هـ) [١].

ومن بين الذين عملوا معيدين فى المجاهدية أحمد بن إبراهيم بن محمد الشافعى إمام المقام الشريف [٢]، كما عين على بن سالم الزبيدى معيداً فى المدرسة المجاهدية، ولكنه رفض ذلك المنصب لأنه كان يطمح إلى منصب أعلى [٣]، ويخبرنا الفاسى أن شقيقه عبد اللطيف عين معيداً بها، لكنه لم يباشر عمله نظراً لوجوده فى مصر [٤].

لم أستطع ضبط السنة التى توقفت فيها هذه المدرسة عن أداء رسالتها، لكن يرجح أن ذلك حدث فى أوائل القرن العاشر الهجرى أو قبل ذلك التاريخ، فعند حديثه عن أحداث عام (٩٣٢هـ) يتطرق القطبى للحديث عنها بقوله : كان يقام بها درس بالقديم، ثم أخذها أحمد العينى وأوقفها على قراءة القرآن، ثم خربت، وهى الآن خراب إلى أن يقيض الله من يعمرها [٥].

---

(١) الفاسى : العقد الثمين (١٢٤/٣ - ١٢٥).

(٢) المصدر نفسه ص(٩ - ١٠).

(٣) المصدر نفسه ص(١٣٥/٦).

(٤) المصدر نفسه ص(٤٨٦/٥).

(٥) القطبى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ص(٤٧).

وأسس حكام بنى رسول مدرسة ثالثة فى مكة هى المدرسة الأفضلية، وقد أمر بإنشائها الملك الأفضل عباس بن الملك المجاهد، وابتدأ التدريس بها عام (٧٧٠هـ) على المذهب الشافعى، وكانت تقع فى الجانب الشرقى من المسجد الحرام، وكان بها مدرس ومعيد وعشرة من الطلبة وإمام ومؤذن وقيم، ومعلم وأيتام يتعلمون القرآن الكريم، وأوقف عليها وقفاً جيداً [١]، وكان مبنى المدرسة فى الأصل داراً يملكها قطب الدين بن المكرم المصرى [٢].

وأول من ولى التدريس فيها محمد بن أحمد الهاشمى العقيلى [٣] (٧٢٢ - ٧٨٦ هـ) قاضى مكة وخطيبها، كما درس بها أيضاً حفيده القاضى عز الدين [٤] وعبد الرحمن بن الجمال المصرى.

وحرص بنو رسول على هذه المدارس الثلاث؛ لتظل تؤدى دورها العلمى بمكة المكرمة، ولتحقيق ذلك عين بنو رسول عبد اللطيف بن محمد بن على الزبيدى اليمنى مشرفاً على هذه المدارس؛ ليتولى نفقاتها ومتابعة أحوالها وصيانتها واستمرارية الدراسة بها[٥]، ولم يكتف حكام بنى رسول بإنشاء المدارس بمكة المكرمة فحسب، بل كانوا

---

(١) على الخرزجى : العقود الؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية (١٥٩/٤).

(٢) الفاسى : العقد الثمين (٢/ ٣٢٥).

(٣) المصدر نفسه (١١٧/١ - ١١٨ - ٣٠١ - ٣٠٢).

(٤) المصدر نفسه ص(٢٧٢).

(٥) العبيكان : الحياة العلمية والاجتماع بمكة ص(٧٤).

ينفقون الأموال باستمرار على العلماء وطلاب العلم، رغبة منهم فى إثراء الحركة العلمية بها، فيذكر أن الملك المنصور نور الدين بن رسول قدم سنة ٦٣٥هـ إلى مكة المكرمة، فأنفق على أهلها أموالا كثيرة نال علماؤها نصيباً وافراً منها [١] . وفى سنة ٦٥٩هـ حج الملك المظفر يوسف بن المنصور، فحينما وصل إلى مكة المكرمة أنفق بها أموالا وصدقات كثيرة على أهالى مكة بما فيهم العلماء وطلاب العلم [٢].

وفى سنة ٧٤٢هـ أغدق الملك المجاهد على بن المؤيد داود بن المظفر أموالا على أهالى مكة المكرمة [٣].

وإذا كان الخلفاء والسلاطين والأمراء قد اعتاوا دعوة مشاهير العلماء من شتى الأقاليم الإسلامية إلى بلدانهم للاجتماع بهم والاستفادة من علمهم، ولعقد مجالس الدرس لهم - فإن حكام بنى رسول قد ساروا على هذه السياسة؛ تشجيعاً منهم للعلم والعلماء، فيذكر أن العالم المكى محب الدين الطبرى الذى كان رمزاً للحركة العلمية فى بلاد الحرمين، والذى قيل عنه ما أخرجت مكة بعد الشافعى مثل المحب الطبرى، والذى وصفه تليمذه الذهبى بشيخ الحرم ومحدثه ومفتيه - هذا العالم القدير كان له مكانة مرموقة عند الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن

---

(١) المقريزى : السلوك (١/٢٧٤).

(٢) الفاسى : شفاء الغرام (٢/٢٤٠) .

(٣) المصدر نفسه (٢/٢٤٧) .

رسول الذى كان يستدعيه إلى اليمن؛ ليسمع عنه الكتب التى ألفها فى الحديث : مثل كتاب الأحكام الكبرى وغيرها، وكان المظفر يكرمه بالمرتبات السخية، ويتمنى بقاءه عنده باليمن، ولكن هذا العالم المكى رفض البقاء باليمن، فعاد إلى مكة . ولا شك بأن هذا التشجيع، وهذه المكانة التى حظى بها هذا العالم عند الدولة الرسولية، قد أوجدت عنده روح الإصرار على النجاح؛ فعاد إلى مكة المكرمة لتحتضن مجالسه العلمية طلاب العلم من مختلف الأقطار الإسلامية [١] . ويذكر كذلك أن الملك الأفضل عباس قد دعا العالم المكى محمد بن يعقوب الفيروزآبادى إلى زبيد فى اليمن، وأكرمه، وأقام عنده فترة من الزمن، ثم عاد إلى مكة [٢].

والخلاصة أن كل ما قام به حكام بنى رسول من إنشاء المدارس والأربطة، وعمل الأوقاف لها، وتأسيس المكتبات، وتشجيع العلماء، والإنفاق على طلاب العلم مكملالما قام به خلفاء وسلاطين وأمراء الدول الإسلامية وكانت جهودهم واضحة وملموسة وأصبحت لها أثر كبير فى ازدهار الحركة العلمية بمكة المكرمة .

---

(١) د . محمد الحبيب الهيلة : التاريخ والمؤرخون ص(٥٤) .

(٢) المرجع نفسه ص(٩٠).

الخاتمة

- كانت مكة المكرمة والمدينة المنورة فى العصور الإسلامية الأولى مركزين من مراكز العلم فى الدولة الإسلامية واستمرت هذه المكانة فيما بعد .

وقد وضع الرسول ﷺ اللبنات الأولى للنهضة العلمية التى تمتعت بها منطقة الحجاز .

- لقد كان للمكانة الروحية التى تمتعت بها مكة المكرمة أثر كبير فى توافد العلماء والمفكرين وطلاب العلم من شتى أقطار العالم الإسلامى إليها وأثر فى اهتمام الحكام المسلمين بها .

- لقد انتاب النشاط العلمى بمكة المكرمة بعض من الفتور خلال ثلاثة قرون، من القرن الرابع حتى القرن السادس الهجرى، ويبدو أن الأوضاع السياسية لها دور كبير فى ذلك الفتور .

- تمتعت مكة المكرمة بنهضة علمية كبيرة فى القرنين السابع والثامن الهجريين وذلك بفضل جهود الخلفاء والسلاطين والأمراء والتجار الذين قاموا بتوفير ما يكفل نجاح الحياة العلمية بمكة المكرمة .

- ارتباط النهضة الثقافية بتوفر الأمن بات واضحاً بمكة المكرمة فالأوضاع السياسية المضطربة لها أثر فى إحجام العلماء وطلبة العلم عن القدوم إلى البلد الذى لا تتوفر به مقومات الأمن، وهذا ما حرص على توفره خلفاء وسلاطين وأمراء وقادة الدول الإسلامية فى القرنين السابع

والثامن للهجرة، وكان أثره واضحاً فى النهوض بالحركة الثقافية بمكة المكرمة .

حرص الخلفاء والسلاطين والأمراء والتجار على إرسال الأموال والهبات إلى أهالى مكة المكرمة، كما حرصوا على بناء المدارس والأربطة والمكتبات فكانت حافزاً لكثير من العلماء وطلاب العلم للقدوم إلى مكة المكرمة .

- وجدت المقومات والعوامل التى ساعدت على ازدهار النهضة العلمية بمكة المكرمة فى القرنين السابع والثامن الهجريين .

- السكن عامل من عوامل الاستقرار النفسى وهذا ما أدركه الخلفاء والسلاطين والتجار فحرصوا على بناء الأربطة التى تأوى العلماء وطلاب العلم الذين لا مأوى لهم فكانت حافزاً للبعض من القدوم إلى مكة طالما أنهم يجدون بها المدارس التى يدرسون ويدرسون بها والأربطة التى يسكنون بها .

- توافد على مكة المكرمة علماء وطلبة علم من أقاليم إسلامية متفرقة فعلى الرغم من انتمائهم لدول إسلامية متعددة إلا أنهم يشعرون دائماً بانتمائهم إلى كيان واحد وتجمعهم رابطة واحدة هى رابطة الدين الإسلامى الحنيف .

- جاءت جهود أمراء دولة بنى رسول مكملة لجهود خلفاء وسلاطين الدول الإسلامية بالبلد المقدس، وربما كان اهتمامهم بمكة

نابعاً من اعتبار أن إمارتها خاضعة لإشرافهم وسيادتهم فترات متعددة فكانت جهودهم لها أثر كبير فى التطور العلمى بمكة المكرمة، ومكملة لما بدأه أسلافهم من الأمراء السلاطين .

- يتضح من وجود هذا العدد الكبير من المدارس والأربطة والمكتبات والدروس الخاصة فى مكة المكرمة مدى النهضة التعليمية التى شهدتها المدينة المقدسة خلال القرنين السابع والثامن الهجريين .

المصادر والمراجع

- ابـن الأبـار، أبـو عبـد الله محمـد بـن عبـد الله القضـاعى (ت٦٥٨هـ/١٢٥٩م)، تكملة الصلة، تصحيح السيد عزت العطار الحسينى، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦م .

- ابن الأثير : عزالدين أبو الحسن على بن أبى الكرم (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م)، الكامل فى التاريخ - بيروت دار صادر ، ١٩٦٥ - ١٩٦٦ م.

- ابن إياس : أبو البركات محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤ م)، بدائع الزهور فى وقائع الدهور- دار الشعب- القاهرة .

- ابـن بشـكوال : أبـو القاسـم خلـف بـن عبـد الملـك (٥٧٨هـ / ١١٨٢م)، كتاب الصلة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦م.

- ابن بطوطة : ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد (ت ٧٧٩هـ /١٣٧٧م)، رحلة ابن بطوطة المسماة : (تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، ط، ١ مؤسسة الرسالة ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .

- ابـن تغـرى بـردى : جمـال الديـن أبـو المحاسـن يوسـف (ت٧٨٤هـ/١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة فى ملـوك مصر والقاهرة -- دار الكتب- بدون ذكر سنة الطبع .

- ابن جبير : أبو الحسين محمد بن أحمد (ت٦١٤هـ/١٢١٧م)، رحلة ابن جبير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

- ابـــن الجـــوزى : أبـــو الفـــرج عبـــد الرحمـــن بـــن علـــى (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم،ط،١ دار المعارف العثمانية حيدر أباد الدكن ١٩٤٠م.

- ابن حبيب : محمد بن حبيب (ت٢٤٥هـ)، المحبر، دار الفكر ، بيروت .

- ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على العسقلانى (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م) .

-* الإصابة فى تمييز الصحابة - دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٥م.

-* الدرر الكامنـة فـى أعيـان المائـة الثامنـة دار الكتـب الحديثـة ١٩٦٧م.

-* فتح البارى - المكتبة السلفية - ١٤٠٧هـ .

- ابـــن حـــزم : أبـــو محمـــد علـــى بـــن أحمـــد بـــن ســـعيد (ت٤٥٦هـ/١٠٦٤م)، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط : ٥ ، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢م.

- ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد(ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر- القاهرة ١٣٩١هـ / ١٩٧١م.

- ابن رشيد : أبو عبد الله محمد بن عمر(ت٧٢١هـ/١٣٢١م)، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة فى الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكـة وطيبة- الدار التونسية للنشر ١٩٨٢م.

- ابن زينى دحلان : أحمد بن زينى(١٣٠٤هـ/١٨٨٦م)، خلاصة الكلام فى بيان أمراء البيت الحرام، القاهرة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

- ابن سعد : محمد بن سعد (ت٢٣٠هـ/٨٤٤م)، الطبقات الكبرى، دار التحرير، القاهرة ١٣٨٨هـ.

- ابن صاعد :، طبقات الأمم، دار الفكر - بيروت .

- ابن ظهيرة : جمال الدين محمد جار الله (ت ٩٨٦هـ/١٥٧٨م)، الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف- ط٢- القاهرة ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.

- ابن عنبة : جمال الدين : أحمد بن على الحسينى (ت ٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م)، عمدة الطالب فى أنساب آل أبى طالب، مجموعة الرسائل الكمالية فى الأنساب- طبع بمطابع دار الشعب القاهرة ١٩٨٠ نشر مكتبة المعارف بالطائف .

- ابن فهد : النجم عمر بن فهد (ت٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م)، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم شلتوت ،ط١، طبعة مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى- مكة المكرمة ١٩٨٣م.

- ابن قتيبة : عبد الله بن مسلم، المعارف، صححه الصاوى، مصر ١٩٣٥م، نسخة مصورة دار إحياء التراث العربى .

- ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م):

- * البداية والنهاية- دار الحديث- القاهرة بدون ذكر سنة الطبع.

• تفسير القرآن الكريم - دار إحياء الكتب العربية .

- ابن فهد : عز الدين عبد العزيز بن عمر (ت ٩٢٢هـ /١٥١٦م)، غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق فهيم شلتوت،ط،١ منشورات مركز البحث العلمي، مكة المكرمة ١٩٨٦م.

- ابن النديم : (محمد بن إسحاق)، الفهرست طبع بالقاهرة ١٣٤٨هـ .

- الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله (ت حوالى ٢٥٠هـ /٨٧٤م).

- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار؛ تحقيق رشدى الصالح ملحس، ط٤ مكة المكرمة، مطابع دار الثقافة، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

- الأصفهانى : (أبو الفرج الأصفهانى)، الأغانى، تحقيق عبد الستار فراج، القاهرة.

- البخارى : محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ /٨٧٠م)، صحيح البخارى، المكتبة السلفية ١٤٠٧هـ .

- البغدادى : أحمد بن على أبو بكر (ت٤٦٣هـ)، تقييد العلم، بيروت.

- التجيبى : القاسم بن يوسف التجيبى السبتى (ت٧٣٠هـ / ١٣٢٩م)، مستفاد الرحلة والاعتراب- تونس- الدار العربية للكتاب ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م،

- الجزيرى : عبد القادر بن محمد (ت بعد سنة ٩٧٦هـ)، الدرر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، ط١ منشورات دار اليمامة- الرياض١٩٨٣م.

- الحموى : ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، معجم البلدان، بيروت، دار صادر ١٩٥٧م.

- الحنبلى : عبد الحى بن العماد (١٠٨٩هـ)، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت .

- الخزرجى : على بن الحسن (ت ٨١٢هـ)، العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية - تحقيق محمد بن على الأكوع- صنعاء- دار الأدب ١٩٨٣م.

- الرشيدى : الشيخ أحمد (ت ١١٧٨هـ/١٧٦٤م)، حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولى إمارة الحاج، تحقيق ليلى عبد اللطيف أحمد، القاهرة ١٩٨٠م.

- الزبيدى : محب الدين (ت ١٢٠٥هـ / ١٩٧٠م)، شرح القاموس المسمى تاج العروس من جواهر القاموس، دار الفكر، بيروت .

- سبط ابن الجوزى : أبو المظفر يوسف بن قز أوغلى (ت٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م)، مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، ط/١ مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن ١٩٥١-١٩٥٢م.

- السبكى : عبد الوهاب بن على (ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م)، طبقات الشافعية الكبرى، القاهرة ١٩٦٦م.

- الشوكانى : محمد بن على (ت ١٢٥٠ هـ/ ١٨٣٤م)، البدر الطالع محاسن من بعد القرن السابع- دار المعرفة - بيروت ١٩٣٠م .

- الطبرى : محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م)، تاريخ الأمم والملوك - بيروت، دار الفكر .

- * تفسير القرآن الكريم، دار المعارف - مصر .

- الفاسى : أبو الطيب تقى الدين بن محمد بن أحمد بن على (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م)

- * شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، مكتبة النهضة الحديثة، مكة ١٩٥٦م.

- *العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين- القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية .

- القطبى : عبد الكريم (ت ١٠١٤هـ / ١٧٠٢م)، أعلام العلماء والأعلام ببناء المسجد الحرام، تعليق أحمد محمد جمال وآخرون، ط١، دار الرفاعى - ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣.

- المسعودى : على بن الحسين بن على (ت ٣٤٦هـ)، التنبيه والإشراف .

- مسلم : الإمام أبو الحسين مسلم (ت ٣٠٦هـ / ٩١٨م)، صحيح مسلم بشرح النووى - مكتبة الحديث القاهرة- ١٣٩٢هـ .

- المقريزى : تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥ هـ /١٤٤١م):

- * اتعاظ الحنفاء- تحقيق جمال الدين الشيال ١٩٦٧م.

- * السلوك لمعرفة دول الملوك- تصحيح محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٥٦م.

- * إمتاع الأسماع، دار الأنصار- القاهرة ١٩٨١م.

- النعيمى : عبد القادر بن محمد (٩٢٧هـ / ١٥٢١م)، الدارس فى تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسينى، دمشق ١٩٤٨م .

- الهروى : أبو القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) ، غريب الحديث، المطابع الأميرية القاهرة، ١٩٨٤م .

المراجع العربية الحديثة :

- الأسد : ناصر الدين، مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف ١٩٦٢م.

- أفندى : سعيد، أسواق العرب، دار الآفاق، القاهرة.

- أمين : أحمد، فجر الإسلام، مطبعة النهضة المصرية، ١٩٥٠م .

- يا سلامة : حسين، تاريخ الكعبة المعظمة، مكتبة الثقافة الدينية، طبعة الولى عام ٢٠٠٠ م .

- باشا : إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، جزءان القاهرة ١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م .

- باقاسى : عائشة، بلاد الحجاز فى العصر الأيوبى - دار مكة ١٩٨٠ م.

- البتنونى : محمد لبيب، الرحلة الحجازية، ط٣ منشورات مكتبة المعارف الطائف.

- جلبى : أوليا، الرحلة الحجازية، ترجمة يوسف الملوانى، دار الآفاق العربية ١٩٩٦م .

- الجندى : على، تاريخ الأدب الجاهلى، الفكر العربى، القاهرة .

- حسين : جميل حرب محمود، الحجاز واليمن فى العصر الأيوبى، ط١ جدة ١٩٨٥م .

- حماده : محمد ماهر، الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكى، الرسالة ١٩٨٣ م.

- الزيلعى : أحمد عمر، مكة وعلاقاتها الخارجية، ط،١ جامعة الرياض ١٩٨١ م.

- السباعى : أحمد، تاريخ مكة، ط،٦ مكة ١٩٨٤ م.

- سرور : محمد جمال الدين، النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب، ط،٣ القاهرة ١٩٥٩ م.

- السليمان : على بن حسين، العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٣ م.

- الشامخ : د. محمد عبد الرحمن، التعليم فى مكة والمدينة آخر العهد العثمانى، ط،٣ دار العلوم للطباعة والنشر - ١٩٨٥ م.

- الشامى : صلاح، الوطن العربى دراسة جغرافية، منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٩٦م.

- شلبى : أحمد، تاريخ التربية الإسلامية، مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٦٠م.

- عبد السلام : عبد الله، مدينة حيس اليمني، دار الآفاق، القاهرة.

- عبد الله : د. عيد الرحمن صالح، تاريخ التعليم فى مكة، ط١ دار الشروق، جدة ١٩٨٢م.

- عبد الواسع : عبد الوهاب، التعليم فى المملكة العربية السعودية، دار الكتاب العربى، بيروت .

- العبيكان : طرفة عبد العزيز، الحياة العلمية والاجتماعية فى مكة فى القرنين السابع والثامن للهجرة، الرياض ١٩٩٦م.

- عفيف : أحمد جابر وآخرون، الموسوعة اليمنية- دار الفكر المعاصر - بيروت ١٩٩٢م.

- العمرى : أكرم ضياء، التعليم فى عصر السيرة والراشدين، بحث فى مؤسسة البيت (مأرب).

- الكردى : محمد طاهر، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، مكتبة النهضة الحديثة مكة ١٣٨٥هـ .

- المالكى : سليمان عبد الغنى، بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية فى بغداد، الرياض ١٩٨٣م.

- مورتيل : ريتشارد مورتيل، الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة فى العصر المملوكى - جامعة الملك سعود - الرياض ١٩٨٥م.

- نواب : عواطف، الرحلات المغربية والأندلسية - الرياض ١٩٩٦م.

- الهيلة : د. محمد الحبيب، التاريخ والمؤرخون بمكة، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى، مكة ١٩٩٤م.

- الوكيل : د/ محمد السيد، الحركة العلمية فى عصر الرسول وخلفائه، دار المجتمع للنشر ١٤٠٦ هـ .

- ولد داده : محمد، جزيرة العرب قبل الإسلام، الرياض ١٩٨٧م.

- وهبه : حافظ، جزيرة العرب، لجنة التأليف والنشر، القاهرة ١٩٦٧م.

البحوث والدوريات والمؤتمرات العربية :

- الذهبى : محمد حسين، رسالة المسجد فى العالم عبر التاريخ، بحوث مؤتمر رسالة المسجد فى ١٥ - ٢٠ رمضان ١٣٩٥ هـ .

- ربيع : حسنين محمد، بحر الحجاز فى العصور الوسطى - مجلة كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود العدد الأول ١٩٧٧ م.

- العسيرى : محمد بن على، العلاقات السياسية بين الحجاز واليمن فى عهد الأيوبيين .

- مجلة كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود العدد الخامس ١٩٨١م .

- فاروق : دباغة الجلود وتجارتها عند العرب .

- (مجلة العرب س ١٠ ج٧ - ٨ -١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م) .

- الماجد : عبد الله .

- المكتبات فى جزيرة العرب، مجلة العرب السنة ٢ رجب ١٩٦٧م.

- المجذوب : محمد .

- رسالة المسجد قديماً وحديثاً، بحوث مؤتمر رسالة المسجد فى ١٥ - ٢٠ رمضان ١٣٩٥ هـ .

رسائل جامعية :

- البسام : لطيفة محمد .

- الحركة العلمية فى الحجاز منذ ظهور الإسلام إلى قيام الدولة العباسية، رسالة ماجستير جامعة الملك سعود ١٩٨٠ م.

- الحسن : سعاد إبراهيم .

- النشاط التجارى فى مكة المكرمة فى العصر المملوكى ، رسالة ماجستير - جامعة أم القرى ١٩٨٥م.

- عبد المجيد : فريال .

- مكة كما جاءت فى كتب الرحالة المسلمين منذ القرن السادس الهجرى حتى نهاية القرن التاسع الهجرى . رسالة ماجستير - جامعة أم القرى ١٩٨٠ م.